مَضارب الأهواء



قصص

إدوار الخرّاط

دار البستانى للنشر والتوزيع

تاسست عام ١٩٠٠

مَضارب الأهواء

الكتـــــاب : **مَضارب الأهواء**
قصص قصيرة
المؤلــــف : **إدوار الخراط**
تاريخ النشر : ٢٠٠٣
لوحة الغلاف : الفنان آدم حنين
النــاشــر : **دار البستانى للنشر والتوزيع**
٢٩ شارع الفجالة ١١٢٧١ القاهرة
٤ شارع على توفيق شوشة - مدينة نصر - ١١٣٧١
هاتف: ٥٩٠٨٠٢٥ / ٥٩١٥٣١٥ فاكس: ٢٦٢٣٠٨٥
e-mail: boustany@boustanys.com
web-site: www.boustanys.com
المطبعة : دار نوبار للطباعة

رقـم الإيـداع : ٢٠٠٣/١١٠٩٩
الترقيـم الدولي : 977- 5383- 41-2

إدوار الخرّاط

مَضارب الأهواء

قصص قصيرة

دار البستانى للنشر والتوزيع
تاسست عام ١٩٠٠

روزا وآديل

كانا يتمشيان على الكورنيش، قالت:

"كل يوم كانت روزا بنت خالتي تسير من الشاطبي إلى ستانلي.

كان بيتهم في شارع امبراوز رالي (الذي أصبح شارع بورسعيد)، قبل كلية سان مارك، في موقع أصبح الآن في مواجهة "البيبليوتيكا ألكسندرينا".

تقطع الشارع الضيّق الذي ما زال يختط الطريق اليوناني – الروماني القديم، وتخرج إلى البحر، وتذرع الكورنيش، كانت السيارات قليلة في الساعة السابعة من الصباح، صيفاً وشتاءً.

تمشي بخطوة سريعة قصيرة، ملفوفة مدكوكة، في وجهها توتّر، عظام وجهها كبيرة وعيناها تومضان. في بيتنا، في شارع بوباستيس، الخرابة التي أمامنا كانت مفتوحة بلا أسوار أرضها رملية نظيفة وواسعة، لم تكن سينما كليوباترا التي اتهدّت الآن، قد بنيت بعد، وكنا نرى روزا من بعيد قادمة وهي مازالت في سبورتنج أو قبلها.

كنا نلعب في هذه الخرابة الفسيحة مع أولاد خالتي إيفُيت وأصدقائهم الذين يأتون من القاهرة – كلهم الآن هاجروا إلى أمريكا.

وعندما تمر روزا أمام الفراندة تشوّر بذراعيها لماما، الله يرحمها، هي بنت خالتها تيته آديل. تقول ماما بصوت عال: أهي روزا عدّت.

فإذا كنا في الشتاء أسرعنا بأكل آخر لقمة في السندويتش ولممنا الكتب والكراريس بسرعة وخطفنا أرجلنا إلى مدرسة چيرار في كليوباترا الصغيّرة.

أما في الصيف فهي علامة نزولنا إلى البحر نقضي فيه طول النهار، وعلى الظهر ترسل لنا ماما مع فاطمة غَدَانا في فوطة نظيفة نأكله إما منقوعين في الماء أو نجري وراء بعضنا بعضاً على الرمل النقيّ، وأحياناً في الظلّ تحت صخرة سيدي جابر، لم تكن البلدية هدّتها وأقامت الكبائن التي هدّها المحافظ الجديد بدوره.

– روزا تأخرت النهاردة

لكنها سرعان ما تظهر بقامتها المدكوكة المدملجة بعد كازينو سبورتنج.

ماما تقول لها بصوت عال يصل من فراندتنا إلى الكورنيش:

– روزا اتفضلي اشربي قهوة.

– مرسي يا ماري ..

بصوت رفيع ثاقب وهي لم تتوقف ولم تخفض من سرعة خطاها.

لم تلبِ الدعوة مرة واحدة ولم تشرب القهوة عندنا، ولا يوم.

في يوم من أيام ربنا روزا انقطعت عن الظهور.

يومها، تأخرنا أنا وأخواتي هنرييت وكوليت وأوديت عن المدرسة، وصلنا بعدما ضرب الجرس، قالت لنا سير چنفييف: كل واحدة تركع "ديز" في فصلها ربع ساعة: Punition يومها كرهنا روزا وقلنا في نفسنا: يا رب تموت. ولكن رجعنا وقلقنا عليها وقلنا يا ترى جرى لها إيه؟ يا ترى خير. اللهم اجعله خيراً. وانتظرنا الأخبار.

عرفنا على طول، أن روزا تزوجت رجلاً كبيراً من جنوب أفريقيا أو يمكن من روديسيا – سحرنا اسم روديسيا ساعتها – خطبها اليوم وتزوجها ثاني يوم. كان بروتستانت لكن القران كان على طقس الروم الأرثوذكس في كنيستنا، في الشاطبي، على يد أبينا اسطفانوس.

أما هو فقد رأى أن البيبليوتيكا ألكسندرينا تقع على ربوة الشاطبي وأن مدافع العرابييّن مسددة إلى البحر، مدورة الأجساد، قصيرة الفوهات، لامعة تومض وضاءةً لم يعتورها صدأ، منافحة عن إسكندريتها المصرية، وأن الفرقاطات والبوارج قد تماسّت مع خط الأفق، وفي رؤياه كانت أعلامها منكّسة، ماركوس أنطونيوس حليقاً جدائل شعره رومانية منسدلة مشعثةً على جبينه، خنجره في منطقته على الخاصرة، ورداؤه الأرجواني قصير على ركبتيه، استبدت به سورة عشق مستحيل ضربت أساريره بالأسى واستسلاف الموت. كان منكفئاً حسيراً رجع مهزوماً من أكتيوم. نلسون وبونابرته معاً غارقان أمام السلسلة، قصف المدافع المتبادل من صفائح السفن الراسية تتأرجح على أمواج البحر الميت كان يصمّ مسامعي لكنه هو وكتائب البحارة

تكسوهم سماديراليمّ، تحت، مع تماثيل هائلة مسوخ إلهية تحدّق إليهم بعيون مطموسة، في الغمر العميق.

هجس به وسواس لم يستوضح مصدره: قد نكص عنكم لويس القديس، خسئت مساعيه في أشمون طناح وسقط فرسانه في دمياط، أما عمرو بن العاص، فقد لمحته أمام الأسوار، بعمامته البيضاء الهائلة متعددة الطيّات، فرسه الشماء صافنة تصهل أمام السدّ المنيع.

سمع الهاجس المتخفي: البيزنطيّة لم يصمدوا. اسكندريتك سائغة في نشوة الاستسلام.

أما ربوة الشاطبي تحت المكتبة المستحدثة فقد رأى أن الحجارة والحصى قد تناثرت على سفحها فقال في نفسه: ألم يكن الأسلم والأصح أن تمسّد وتزرع بالخضرة والسوسن والسسبان. ردّ على الوسواس: ما من سكينة تستنيم إليها، وما من سبيل أمامك إلى السلام.

وعندئذ رأى أنه يدخل إلى قاعة الاحتفال بافتتاح المكتبة، وأن ثمت ساحة لاستقبال السادة من الأمراء والكبراء والوزراء. الياقات المنشاة والبابيونات المزدهرة والبدَل السموكنج السوداء على قمصان شرسة البياض يانعة الأكمام. والسيدات من نجمات السينما وكرائم الأسر المالكة التي ما زالت تحتفظ بألقاب من قبيل الدوقات والبارونات والبرنسيسات في فساتين السواريه مكشوفة الظهور تجسد تدويرات النحور وتنسدل في تفاويف الساتان.

ولكنه اتجه على الفور إلى مائدة السوالم: حلمي الشاعر، وفاطمة أستاذة اللاتيني في كلية آداب الإسكندرية في الأربعينيات، ومحمد الرسام، ورامة ناجي، ومحمد القاصّ، وروزا مستقيمة الصدر صارمة الأسارير إلى جانب روبرت جونسون الروديسيّ مضرج الوجه في أنفه المسنون شعيرات دقيقة حمراء من أثر الويسكي والاستبداد، وكأنما على رأس المائدة الزير سالم بذات نفسه، سيفه المهنّد ينوس على خاصرته، ودرعه مسنودة في صحن الساحة إلى عمود البثّ الإليكترونيّ الصاعد من قاعة المكتبة السفلى حتى سطحها في الدور الثاني عشر، حوله أجهزة الكمبيوتر تومض بذبذبات خاطفة.

سمع خطيب الحفل يشيد بالاسكندرانية الحقيقيين والمزعومين داريل وأنجاريتي وكفافي - قاليماخوس ورجب وجبريل والصاوي وعوض ورمزي ومرسي، زغلول وسامي وأبو زهرة، لكنه لم يأتِ على ذِكْر الخراط، فقال دائماً في الأفراح منسيّون، ولم يعتوره أدنى مساس.

"تيته آديل خالة ماما وحبيبتها الروح بالروح كانت تحبني وكل ما تزورنا يوم الأحد، بدري قبل الكنيسة، كانت لا تنسى أن تجئ لي بالكراملة والتوفي والكاكا شينوا، أنتم تقولون عنه نبوت الغفير؟ أو العسلية؟

عندما مات زوجها، جدّي فانوس متري، انتقلت من بيتها - كانوا جيراننا في كليوباترا الحمامات - إلى بيت بنتها روزا في شارع

امبرواز رالي الذي اسمه الآن شارع بور سعيد. سافرت روزا إلى كينيا، كان زوجها يشتغل في صناعة سياحة السفاري ينظم رحلات إلى المحميات في ضواحي نيروبي، السياح الأمريكان والذين جاءوا من النرويج والسويد يأخذون السيارات المصفحة ليشاهدوا الأسود عندما تأكل لحم الأحصنة أو تعمل الحب مع بعض وتتسطح تحت الأشجار العالية والقرود تزعق وتنط على أعشاب السافانا الأفريقية.

كانت تيته آديل تزور تربة جدّي مرة كل أسبوعين يوم الأحد، بعد القداس، وكنا نخرج من الكنيسة بعد أن ينتهي أبونا اسطفانوس من آخر المردّات بكلام لم أكن أعرف بأي لغة هو، عرفت أخيراً أنها اللغة السيريانية، وأنا أحمل لها زجاجة زيت فرنساوي للقنديل الذي كان على شكل صندوق من معدن لامع مفضّض وفيه كوب مليئ بالزيت في وسطه فتيل لازم تفضل شعلته حية لا تنطفئ ولو لحظة واحدة تحت القبة العالية المدورة.

المقبرة التي كانت هادية وساكتة وخفيفة العتمة لها نافذة واحدة عليها قضبان حديدية الواحد منها قريب من الآخر، نور السماء يدخل منها، وساعات في الصيف أشعة الشمس تنزل زيّ خطوط مستقيمة رفيعة على حجر القبر المرتفع عن الأرض قليلاً وعلى الصليب الرخام الكبير، واسم جدّي محفور فيه مع سنة ميلاده ووفاته بالعربي والفرنساوي، وأنا نِفْسي أخلص بقى وارجع البيت، لكن حاسة إنّ أنا أعمل حاجة ربنا يحبها.

وفي مرة انكسرت مني زجاجة الزيت وقعت مني، اتزفلطت بيـــن صوابعي وفرقعت على بلاط التربة وبقت ستين حتة، والزيـــت ســـاح، وكانت مصيبة.

مصيبة عندي أنا، حسيت إن الدنيا اتهدّت وإنّ أنا عملت عَمْله - لا يمكن تصليحها، ولقيت نفسي أبكي لغاية ما موّت نفسي من العياط.

تيته آديل اتخضت.

قعدت تطبطب عليّ وتهدّيني وتبوس فيّ.

- معلش يا بنتي معلش يا حبيبتي ساني فيه ريان ça ne fait rien فداك يا روح قلبي .."

دق قلبه بعنف دقات سريعة، عاد فرأى نفسه على بسطة سلّم بيتـهم في غيط العنب، وقد حطّ عليه ظلام الليل وظلام أنكى وأعتى في القلب. كان قد انكسر منه طبق سكسونيا وهو رايح يشتري فول للعشا. كارثـــة صبيانية لا رادّ لها. أمه كانت قد ثارت عليه المرة التي فـــاتت ثـورة عارمة، وعاقبته عقاباً لا ينساه. لذعات الألم المحيق اللاسع أهون مـــن ألم المهانة من الضرب بالشبشب النسائي وكل دلالة الإذلال والســـطوة حتى في وعي طفل التاسعة من عمره، وقد بدأ يتفتح مبكراً.

كان قد قرأ "أيام" طه حسين، وبدأ يقـــرأ "اللطـــائف المصـــورّة" و "الكواكب" وروايات الجيب ويعرف شيئاً عن قصص آلام فيرتر وغـــادة الكاميليا.

في عتمة سلالم البيت الخارجية كان يجلس وفي يده شظايا وخزف السكسونيا بلونه الأصفر الفاتح جداً، يلمع في العتمة وعليه نقوش الورد الدقيقة بالأحمر القاني وغصونه الخضراء المقطوعة، وهو يتوقع لا العقاب البدني الذي لم يكن يهمه أمره كثيراً - وإن كان موجعاً - ولكن هواجس السقوط الذي يحز بعزّة كبرياء طفلية أو صبيانية متحفزة ومتوفزة للحفاظ على ذاتها وعاجزة في الوقت نفسه أمام صلف الحبّ المحيق الذي لا يرضى من موضع حدبه إلا بالكمال.

"يوم شم النسيم نصحى بدري أنا وأخواتي أوديت وهنرييت وكوليت. الدنيا مدخمسة ونور الصبح يشق علينا من الشبابيك التي فتحتها لنا ماما تضع تحت أنوفنا أعواد البصل الأخضر نفوق على رائحته التي تفوح علينا بقوة، نلبس بسرعة ولهوجة: الصندل الجديد، والفستان الجديد وشرايط الشعر الجديدة، نتخانق كوكي، فين صندلي؟ هاتي، ليه خدتي شريطة شعري الزرقا؟ دي مش بتاعتك. أهي الشريطة الحمرا بتاعتك، دودي، حاسبي فستاني إتجَعْلِكْ تحت هدومك.

ولما نرجع من مشية الصبح على البحر، واللعب مع أولاد خالتي من مصر، نلاقي شريطة أو فردة حلق ضاعت من واحدة منا، ماما توفق بين فِردَ الحِلقان وتكملها على بعض وتقص شرايط الشعر وتربطها من جديد، وبعدها نقعد مع الكبار، بابا وماما واخواتي الصبيان وروزا ولويزة وتيته آديل، ونفطر كبد وكلاوي الخروف، ونفقش البيض الملوّن مع بعض اللي تتكسر منه قشرة البيضة يخسر، ونفصص نساير

الفسيخ، وبعد الفطار ننزل نلعب في الخرابة قدام بيتنا وبعدها نجري على البحر نعوم ونصطاد أبو جلمبو الصغير بالعصيان أو الأعواد الخشب الصغيرة ندخّلها في خروم الصخر وننكش فيه لغاية ما يطلع، وساعات نصطاد سمك بالبرطمان نحطّ فيه عجينة ونخليه تحت الموج والسمك يفتكره أكل. ناكله تصبيرة قبل الغدا، بعد ما تقليه ماما، زيّ البساريا، وتحطه لنا في ساندويتشات عيش بلدي، وع الغدا نأكل البامية اللذيذة مع الضاني والكرشة المحشية المعمولة من نُصّ الخروف الباقي بعد ما بابا كان فرّق ربع الخروف على الغلابة في الحتة، والربع الثاني أدّاه للكنيسة، والفروة للإسعاف.

"بنت خالتي لويزة جات عندنا يومها وتغدت معنا. كانت عملت عملية شالوا منها بزّها الشمال، وبعدها شالوا بزّها الثاني، وكنا نضحك عليها لأنها كانت تنام عندنا أحياناً وتشخر كأنها قطر سكة حديد، وتستلف مجلات "آخر ساعة" القديمة، وتجمعها، مين يعرف بتعمل بيها إيه، ماما كانت تقول: آل يعني بتعرف تقرا، وتيتة آديل ترد: يمكن بتتفرج على الصور يا ماري.

كان زوجها نسيم بخيلاً جداً – لهذا كانت تأتي عندنا كثيراً. كان يعيش على رغيف واحد، حاف، مع زيتونة واحدة، في اليوم.

ومع ذلك كانت لويزة، حتى بصدرها المسطح، امرأة جميلة وأنيقة، شيك، في الشتاء بالطو بُنّي ناعم الوبر، وفي الصيف لبسها حرير موسلين.

في شمّ النسيم سنة ١٩٣٦ كان أخوه أمين قد مات تحت عجـــلات قطار الدلتا في السنبلاوين، ولم يأت أبوه وأمه، حـــداداً، إلـــى حديقـــة "النزهة"، كالعادة كلّ شمّ نسيم، ذهب مع خاله يونان وامرأته وأصـــهاره أمّ صبحي وأولادها وزوجها فارس أفندي الرفيع الذي كان يلبس نظـارة سِلْك مدورة تحدق منها عيناه الجاحظتان. كان مـــأواهم ظـــل الشـــجرة الضخمة التي كانوا يلوذون بها كل سنة، يدخلون إلى تجويفـــها الغـــائر المرحّب – كأنهم يحتمون بحضن أمّ رؤوم غابرة وتتحدى الأزمان مـــا زالت تحيا من مئات السنين.

انعزل عن بهجة العيد يقرأ في مجلة قديمة من مجلد "مصر" عـــثر عليه عند عم فرج زوج خالته الزنجيّ السودانيّ الذي كان يعمـــل فـــي السكة الحديد وكان يحبه جداً.

كان حذاؤه الأسود الجديد ضيقاً والشراب القطن الأبيض يحزّ فـــي أصابع قدميه ولم يكن يجري مع أولاد أمّ صبحي، وطفر الدمـــع مـــن عينيه، بينما قطة سوداء غطيس تمرق منسحبة بسرعة خارقـــة، كأنمـــا جسدها يتمدد بلا نهاية، أمام الشجرة الوارفة التي فُرشت تحتها الملاءات والبطاطين والحصر وعدة العيد وحِلل المحشي وطواجن الرزّ المعمّـــر ولحمة الخروف المشوّح ووابور البريموس وبرطمانات الترمس وأطباق الفسيخ المتغطي بفوط محلاّوي.

لم يأكل بالكاد وزوجة خاله يونان قالت له:

- يا عين أمك حتفضل معصعص ومعضّم كده على طول وكافي نفســك ع القراية طول النهار، قوم يا حبيبي العب مع أخواتك.

حنان صوتها لا يفارقه يبحث عنه في كل حنان.

أتيك ١٥ يونيو ٢٠٠١

الساحل الشمالي

حتِّة حلاوة طحينية

عندما كانوا في بيت شارع الكروم الذي تتوسطه شـرفة خشـبية مقفلة لها نافذة تُفتح وتقفل وتطل على اصطبل عربات كـارّو وأربعـة خيل قوية الجسوم جلدها البُنّى يلمع بعد أن يدعكـه السـايس النحيـل الضئيل بفُرشْة خشنة ويغسله بالماء من خرطوم مِـتركّب فـي حنفيـة كبيرة، كان قد أخذ الابتدائية. في مسامحة الصيف كان يجري حافياً إلى بيت صديقه جابر على شارع ١٢ يستعير منه مجلات "عشرين قصـة" و"أبوللو"، ثم يصعد السلالم إلى شقة بيت الأخوين عيسى وعلى المردَنْى ويأخذ من عندهم أعداداً قديمة من مجلات "الكواكب" و "كل شئ والدنيا" و "اللطائف المصوّرة" ولا يتورع أن يقتطع منها صور نجوم هوليـود ومصر من أول جريتا جاربو وجانيت ماكدونالد وميرنا لُويْ وكلوديـت كولبير إلى أمينة رزق التي كانت صبوحاً جميلة مشرقة وزوزو حمـدي الحكيم في ثياب الإغراء الضيقة على جسم ممشوق رشيق وروحية خالد بنظرتها الحالمة وعزيزة أمير.

ألصَقَ هذه الصور على كراسات مختلفة الأشكال والأحجام متباينة خامةِ الورق وما زال يحتفظ بها ويعود إليها كما يعود المرء إلى سنوات آخر الطفولة وأول الصبا الحافل بالأحلام والرؤى وقد تيقظ الشبق على حكايات ألف ليلة وليلة ووجد نفسه على الكنبة الاسطمبولي جنب ترابيزة الرخام التي عليها كتبه ومجلاته، يشتد عوده فجأة يصل إلى ذروته ربما لأول مرة ويندفق منه هذا الذي قرأ عنه أنه ماء الحياة على صور فاتنات بالمايوه الذي يعلو فقط إلى آخر الأفخاذ البضة من فوق، ويستدير بالبطون المدوّرة ويكشف عن نحور ناهدة نصفها مستور ونصفها منشور، وعلى هذه الأوهام والرؤى مهما تجسدت باللحم المشتهي يقوم عماده كما ظل يقوم طيلة أعوام لا تكاد يكون لها عدد ولا تكاد تكون قد انقضتْ وغبرتْ وانطوت هي لم تأتِ بعد أو جاءت ومازالت معه منذ أمس لا أكثر وكل الأجساد البضة المتنزية بالشهوة مازالت كما كانت دوْماً خيالات مع كلّ جسد انيّتها الحاشدة باللحم الحيّ.

كان يكتب عندئذ ما تصوَّرَ أنه نَصّ "أوبريت غنائية" من ثلاثة فصول، وخمسة مشاهد، لم يكمل منها إلا مشهدين ثلاثة، عن حروب أحمس على الهكسوس وانتزاع حرية مصر الفرعونية من أيدي الغاصبين، وكان النص مقطّعاً إلى شطرات جاهد أن يكون لها إيقاع موسيقيّ وهو بعد لم يسمع عن شئ اسمه عروض الشعر أو تفعيلات الخليل، ورسم بالقلم الكوبيا غلاف أوبريت "حرية مصر" وفيه شاعر فرعونيّ جالس على شط النيل مستنداً إلى نخلة سامقة السعف يضع

رأسه على كفه متفكراً في المصير. هو رسم شقّه بالضغط على الورق بسنّ ريشة ثم بيّضه بالقلم، من صورة في مجلة "أبوللو" وأعاد تشكيل بعض عناصره.

وبعد كل هذه السنين لعله ما زال يظن أن الفن أو الإبداع ليس إلا إعادة تشكيل للوجود.

كان ينزل من باب الشارع يمر على باب الشقة الأرضية المقفل بعد أن سافرت حسنية إلى غير عودة وانتهت من عندها على الأقل متاعب أو مباهج الليالي التي اشتكت منها ولم يكد يفهمها على حقيقتها: "ربنا يتوب علينا من سهر الليالي" وكان إذا عاد من المدرسة آخر السنة، إذ يعبر فسحة البيت السفلية الصامتة الفسيحة، قبل أن يرتقي درجات السلّم، ينتضي حسامه الفتيّ مستقيماً صبيانياً، بالطبع، ولكن مبهجاً ومفاجئاً له نفسه، في حركة تحدٍ أم هي تحية متأخرة، أو استعادة فعلٍ لم يتحقق ولم تعد ثم إمكانية لتحققه.

أما زال الزعفران متوهّج الاشتعال؟

نزل يشتري حلاوة طحينية من البقال على قمة الشارع.

عند حَوَداية الشارع أحس بالجرح القديم في كوع ذراعه اليُمنى يأكله، القشرة بنّية اللون هشة وجافة، قبّت إلى أعلى قليلاً وما زالت لاصقة بلحم الجرح الطري تحتها، من مدة وقع على الرصيف هنا بالضبط على قمة الشارع وتسلخ الجلد عند الكوع، والدم كان يشرّ متدفقاً، رجع البيت، أمه اتخضت: "يا لهوي.. إيه اللي عمل فيك كده؟"

لكن لم تقل كلمة تدليل أو مواساة واحدة، لم تقل يا حبيبي يا ضناي، أو يا روح قلب أمك مثلاً، هل بعد خمسة وستين عاماً ما زال يحس الغضب والافتقاد وشهوة للحنان، حساً لم ينله لا النضوب ولا الجفاف؟ لكنها وضعت على الجرح صبغة اليود اللاذعة وسدت النزيف بقطعة قطن وشاشة، جف الجرح وتكونت له قشرة، كلما قبّت قليلاً عن الجلد حكّها ونزعها وبان الجلد المحمرّ المجروح، يجف ويقشر عدة مرات، ولا يلتئم، ترك ندبة من جلد رقيق شفاف ومبيضّ قليلاً - مثل قشرة البصل - حتى الآن.

في السكة وجد ورقة من مجلة على الرصيف، كان الشارع نظيفاً رملياً حجرياً، غير مسفلت، والورقة فيها صُور لمحها مغرية، ولم يكن بحاجة إلى إغراء على كل حال، كم التقط في شوارع غيط العنب التي كانت صافية وشبه خاوية، أوراقاً من كل نوع قرأها بشغف ونهم الذي اكتشف عالم القراءة ولما يكد.

المقال في ورقة المجلة - لعلها "كل شئ والدنيا" بطباعة الروتوغرافور السيبيا الأزرق موضع فخر مجلات دار الهلال في ذلك الزمان - كان عن ثورة المهدي في السودان، وخليفته التعايشي.

هل كان ذلك جوردون باشا بحلته العسكرية وعليها النياشين والأنواط وقبعته الرسمية البريطانية وكامل الأبهة الإمبراطورية على رأس سلّم قصره الفخم يرفع ذراعيه، بحركة تهديد أو إيماءة تسليم؟ بينما تقتحم قاعة القصر جموع الدراويش المهداوية بهدومهم الفضفاضة

وجسومهم الضاوية السوداء وعمائمهم الكبيرة يلوّحون بسيوفهم فـاغري الأفواه حفاة عراة السيقان تحت الجلاليب المرفوعة في حركة الـهجوم واندفاع "الدهماء". وهل كان جوردون باشا يصوّب مسدسه العسـكري ويطلق عليهم النار؟ أم كان يتوسل إليهم أن يثوبوا إلى الرشاد ويستعيدوا العقل ويراعوا المصلحة؟

الصورة وإن غابت بعض تفصيلاتها ما زالت متوهجـة سـاطعة الحضور.

البقال جاء من وراء "البنك" الذي يحجز الخارج عن باطن الدكـان الذي يموج بعتمة غامضة الأسرار تتخايل فيها الصفـائح والشـوالات المرصوصة والأرفف المحملة بعلب دخان الغزالة وسجاير كوتـاريللي وقوالب صابون نابلسي فاروق والشمع وزجاجات الزيـت الفرنسـاوي وتحتها صناديق مفتوحة مثبتة على الحيطان فيها حبّات البيـض علـى القش، وأكوام البصل المحمرّ وعناقيد الثوم الأبيض وما لا يكاد يتبيّنـه من كنوز الزاد والزوّاد.

وهو واقف خارج البنك، تحت التندة القماش المائلة التـي تظلّـل واجهة الدكان يتدلى من طرفها الحبل الذي ترفع بـه أو تُجمـع عنـد اللزوم.

هل كان الوقت عزّ الظهر، والظلّ تحت التندة مطلوب ومحبوب؟

قال لصبي البقال: إديني حتة حلاوة على البيعة.

كان فتىً جسيم البنيان فجّ الوجه خام الطبع.

فجأة قفز الولد من على البنك وقال له: حاضر من عينيّ، ثم استدار وأطبق عليه من الخلف ووضع حبل التنده حول عنقه وشدّد الخناق.

أحسّ الدنيا تظلم حوله، وشهق يتلمس النَفَس ويختنق ويطوّح بذراعيه.

مدّ صبيّ البقال يده بقطعة الحلاوة، عارية دون ورق، وقربها من فمه. عندئذٍ سحب قطعة الحلاوة بشفتيه واستطعم عذوبتها السكّرية المرمّلة.

سمع الولد يضحك ضحكة شريرة وخالصة الصفاء وهو يرخي الحبل ويعود وثباً إلى الداخل المعتم الضارب بخفاياه.

رأى جودايْفا السوداء على الحصان الخامس في الإسطبل، عارية، شعرها منسدل حالك السواد على ظهرها المنسرح الطويل، يصل حتى ردفيها الثابتين على الحصان، دون سرج، ولا لجام، ينطلق جموحاً بلا رسنٍ ولا مهماز، بلا إسار كأنه هو مع ديانا السوداء التي تمتطي صهوته كيان واحد بلا انفصال، ينساب بسلاسة الحرية غير المحدودة خلُص من قبضة جاذبية الأرض، يعدو فوق السحاب بسرعةٍ لا هوجاء ولا عشوائية بل محكومة بقانون ليس من هذه الأرض، وجهها المسمسم بأساريره الناعمة فيه من زنجيتها الحارة شفتان ملؤهما لحم الشهوة، أما الوجنة التي يراها من على جنب فأسيلة ممسودة بأيدٍ سماوية، عيناها

عميقتان سوداوان فيهما ومض سحري فرعوني، مكحولتان بشريطين رفيعين ينزلان على عظمتي الوجنتين، هل نحن في ظُهْر الخليقة الأولى أم في غسق سرمديّ بلا بدء ولا آخر؟ وفيم جموح الحصان الخامس؟ هل هو يسري نحو أفق مستتر يُجِّنُ في رَحَمِه بشاراتٍ من فردوس مفقود؟ جودايْفا السوداء واعدةُ بأبوكاليبس فيه العدالة والكرامة والرحمة بالعالمين. فهل ثم وصول إلى حافة الأفق الذي يظل يتراجع بلا انتهاء؟

"وصل دراويش التعايشى خليفة المهدي إلى وادي حلفا واكتسحوا مقاومة العساكر المصرية والإنجليزية وبلغوا مشارف توشكي عاصمة الإمبراطورية النوبية القديمة وتحرج الوضع العسكري على حدود الديار المصرية."

كانت الشكمجية من خشب الأبنوس الأسود، وعليها طبقة خفيفة من غبار السنين، مطعمة بالعاج الأصلي المنحوت على أشكال وتصاميم بارعة التقطيع متنوعة التوزيع في باطن الخشب الناعم، ولما فتحها بصعوبة صدر عنها صوت طقة واحدة صعبة.

الورق أصفر هشّ تآكلت حوافه من القِدَم يكاد يتكسر عندما أمسك به برفق يرفعه من قاع الشكمجية، هبّت نسمة بحرية مفاجئة من ناحية بلكونة شارع بوباستيس، كليوباترا الحمامات، فاستدار يحمي الورق بيده من الهواء، الخطّ الرقعة الفارسي الذي يشبه خطّ أبيه، وإن كان أقل منه أناقة، بالحبر الأسود الذي بدأ يبهت ويشحب قليلاً، هل كان مكتوباً بالريشة أم بالقلم البَسْط؟

"وادي حلفة في ١٤ إبريل ٩٦

حضرة سيدي الأخ المحترم دام بقاه ،،

بعد إهداء جنابكم وافر الأشواق والتحيات نبدي انه بمعونة الله تيسر وصولنا لهذا الطرف بالسلامة ولكن حصل لنا تعب كثير أثناء الطريق وقد نزلنا هنا في خِيَم حيث ليس موجود هنا بالحاضر قشلاقات فاضية والمأمول قريباً عند توجه العساكر المصرية إلى النقط الأمامية نأخذ محلهم أما تاريخ قيامهم للآن غير معروف، الحرّ عندنا شديد جداً ومع ذلك فالحمد لله الصحة العمومية جيدة. أما من جهة أخبار الحملة وحركات الجنود المصرية والإنكليزية والدراويش فهي ربما معروفة عندكم أكثر مما هي معروفة عندنا لأن التلغرافات تروح لديوان الحربية عندكم رءساً إلا أن المسموع والشايع عندنا أن العدو (الدراويش) خايفين من قدوم الحملة فكلما تقدمت عساكرنا نحوهم يتقهقروا إلى الوراء والمرجح انه لا يحصل موقعة إلاّ في دنقله أو ضواحيها فإن انتصرت عساكرنا انكسرت شوكة المهدويين وسهل استرجاع الخرطوم وإلاّ فتكون العاقبة وخيمة ومن جملة ما هو شايع هنا اليوم أن الإيطاليين قهروا الدراويش الذين كانوا محاصِرين كَسَلة ولذلك انفك عنها الحصار ولابُد أن خبر طلوع الحملة على السودان كان له تأثير عظيم في انتصار التلْيان وانخزال الدراويش، بالأمس حصل مناوشة قرب عكاشة بين طلايع جيشنا والدراويش ودامت نحو

نصف ساعة وانجلت المناوشة عن قتل عشرة أنفار من كل فريق وهروب الدراويش. الشغل في مد السكة الحديد جارٍ بهمة عظيمة والذخيرة والمؤنة تتوارد بكثرة وقد بلغنا مؤخراً انه في أوايل الخريف ستحضر قوة إنكليزية عددها عشرة آلاف عسكري بقيادة الجنرال بوللر فهل ذلك صحيحاً؟ طمنونا عنكم دايماً وإذا كان يجدّ عندكم شئ مهم أخبرونا ودمتم لأخيكم".

فانوس متري

كانت المراوح الكبيرة تدور بأجنحتها سريعة خاطفة لا يكاد يرى منها إلا صوتها. أزير متصل لا يخفف حر الغرفة الفسيحة عالية السقف في فندق جراند أوتيل الخرطوم، قريبا من النيل، وهم حول المائدة المربعة وأمامهم كؤوس الجن تونيك مثلجة تتسايل على زجاجها الخارجي قطرات دقيقة من ندى الثلج تحت شريحة الليمون المرشوقة، بنعومة، في زجاج الكأس الطويل.

عثمان الإدريسي بوجهه الطويل اللامع شاهق السواد، نحيل القامة، ساقاه ممتدتان بلا نهاية فيما يبدو تحت المائدة، عيناه الصغيرتان متقدتان بحماسة إيمان عنيد وأسنانه ناصعة البياض تحت شفتيه اللحيمتين الزنجيتين مفترتين عن شبه ابتسامة.

محمد عبد الفضيل يعدل من حماسة زميلة بحكمةٍ لعله ورثها عن جينات أسلافه العرب تجار الرقيق والذهب القدامى، مستدق الأنف، وسيماً وملامحه متسقة في لونها القهوة باللبن.

وأمامهم مسودة "بيان إلى جماهير الطبقة العاملة في مصر والسودان" بتوقيع "أنصار الدولية الرابعة في وادي النيل".

أوهام عن الحرية والعدالة تطايرت أم تظل راسخة في القلب كالجبال؟

هل الأحلام دائماً مهدرة؟

وهل الجرح يظل أبداً غير ملتئم؟

طعم حتة حلاوة طحينية في فمه، لا تذوب.

أتيك ١٨ يونيو ٢٠٠١

شجرة الجميز

شجرة جميز واحدة هائلة على شطّ ترعة في حقول واسعة ممتـــدة ساطعة بالشمس المحرقة.

عندما يترك شوارع أخميم يودع تلالها التي يثوى تحتها الرامسيوم العظيم المدفون، وكنيسة أبي سيفين ومسجد السلطان، يشمّ فجأة رائحـــة البرسيم في الحقول، وكثافة عيدان الذرة الطويلة داكنة الخضرة مترعـــة الأوراق لها وشيش في أول العصر الذي مازال حاراً، أرض الطريـــق الزراعي الضيّق تفحّ بسخونة رملية تحت قدميه المنتعلتيـــن الصنـدل الجلدي المكشوف يحاذر أن تطأ أصابعه العارية رمل الطريق المتقـــد، حتى يصل إلى موئله ومبتغاه، شجرة جميز واحدة، هائلة علـــى شـط الترعة، وارفة الأغصان مثقلة بأشواق عتيقة غير مرويّة.

في حديقة "النزهة" الشجرة الأم، مأواهم إليها في شم النسيم، منـــذ الصباح الباكر، ينزلون من المركب التي أقلعت بهم من عنـــد كوبـــري راغب باشا، فردت شراعها وانسابت في ترعة المحمودية ببطء وجلال، المراكبي الصعيدي قد رحّب بأبيه بلدياته الصعيدي الذي خاطبه وساومه

وعقد معه الاتفاق على الأجرة بلغوتهما الصعيدية، ينزلون عند كوبري "النزهة" ومعهم كل عدة الفرْش والأكل والشرب، يصعدون جانب الشط بشيء من المشقة المرحة في تشوفهم إلى العيد وقد أوشك أن تصعد بهجته، يسارعون من سيرهم حتى يلحقوا الهدف، حتى إذا شقوا الطريق المألوف الذي يعرفونه حق المعرفة في كل عام وسط ممرات وأشجار وأحواض زهور "النزهة"، وصلوا إلى ملاذهم ومظلتهم والحضن الرحيب: شجرة ولا كلّ الشجر، عملاقة سامقة منبسطة الفروع وراسخة الأصول، فهي أكثر من واحدة، هي أمّ وأسرة من الشجر، أكثر من ابن أو بنت من أسرة الشجرة الأم، تحيط بفسحة من الأرض معشوشبة ممهدة لتكوّن بيتاً أخضر مريحاً هواؤه رطب ومنعش يشرح الصدور، دون أن تغلقها بل تترك منافذ أو أبواباً في هذا الجدار المتفتح الذي يستر دون أن يحاصر، يُكنّ دون أن يغلق، يحمي دون أن يسدّ.

إلى جانبها ترعة صغيرة أو مسقى يجدون فيه ما يحتاجون من ماء الشطف وغسيل المواعين. أمامها بالضبط شريط طويل متسع من خُضرة النجيل المشذب المعتني به، يمتد حتى آخر النظر، يلعب عليه أخواله وأقاربه الكبار "نطّة الإنجليز" منحنين بظهورهم، أيديهم على رُكبهم، يثب من يوجد في أول الصف على اللاعبين المقوّسين بأجسامهم يسند إليهم يديه ويثب حتى يصل إلى آخر الصف فينحني بدوره لكي

تستمر نطّة الإنجليز، إما إذا وقع فإن عليه أن يظـــل منحنيـــاً مقـــوس الجسم، يتحمل عبء من يثبون فوق ظهره حتى يوفي الجزاء.

كان يرقب اللعبة مفتوناً بفتوة الشُبّان الأشداء، فلم يكن قد بلغ ســـنّ الصبا الناضج، ولم يكن في العائلة من رصفاءٍ له، أولاد أخواله ما زالوا أطفالاً، وأولاد أعمامه في الصعيد لا يكاد يعرفهم، يدفن رأسه – وســـط بهجة العيد – في مجلة "الاثنين والدنيا" التي تصدر يومها بغلافها الـــذي يصوّر الكاريكاتير الملوّن بالأزرق الفاقع أو الأحمر الناصع، للزعمـــاء السياسيين: النحاس وتوفيق نسيم وحافظ عفيفـــي واســـماعيل صدقـــي ووزيراً للداخلية لعل اسمه بهجت باشا، قاسي الملامح صارم النظرة.

ذلك منذ سنوات قلائل، أما الآن فإن غارات الطـــائرات الألمانيـــة والإيطالية على الإسكندرية – وقد هدمت البياصـــة بأكملـــها واللبّـــان والقبارى – ألجأتهم إلى "الهجرة" وها هم في أخميم، صيف عـــام ١٩٤١ أو لعله ١٩٤٠؟

غروب الشمس يوشك أن يحطّ على رحلتـــه وحـــده، وهـــو بيـــن الغيطان الفسيحة الكثيفة، بحذاء الترعة التي تتقلب مياهها بحمـــرة بـــدء الدميرة، والصمت، سكون آخر النهار، كل شئ يستعد للهجوع والكمـــون طول الليل، والكائنات الليلية لم تفِق بعد من خمول النهار، تستعد بدورها ليقظة البحث عن الفرائس والهجوم على ما يوقعه مصيره بين المخـــالب والأنياب.

رهبة الأواخر مطبقة، تجعل القلب واجفاً متهيّب الإيقاع، نور الغروب مع ذلك صافٍ شامل، مغسول من كل الأوضار، يُضْفي على كل شئ: الشجر، عيدان الذرة وأوراقها المتكاثفة، رمل الطريق، ماء الترعة، كلها، حدوداً قاطعة الوضوح.

قبل أن يصل إلى الشجرة، رأى على مبعدة ولكن في نور هادئ وجليّ، كائناً مختلطاً تحت الأغصان الكثيفة، تتحرك أوصاله حركة بطيئة مستغرقة، يندّ عنه ما يشبه الأنين أو زحير جهد المتعة القصوى، بين الثياب والأردية السوداء والملوّنة، السابغة والمعراة، الأصابع القشِفة الصلبة، كأنما لا عداد لها، تتلمس، وتضغط على الخد والعنق، والنهد المكوّر المكشوف، في شبقٍ مكتوم وجامح في وقت معاً، لا غلاب له. السيقان الأربعة متلاحمة ومتراكبة، ومضات من الجسد الأسمر الأسيل بين الثياب، تحت ثقل ما يشبه صخراً داكن القتامة، صلباً مقتحماً بضراوة.

وغير بعيد، وكأنما في الحراسة، كلب أرمنت عالٍ، منحوت الرأس، مرقط الجلد بتنويعات من الأصفر الكابي والبنّي الفاتح، يقف ثابتاً، يحدّق إلى الكائن الإنساني المزدوج المستغرق في عمل المتعة يعتصره جهد اللذة المتصاعدة تدريجياً نحو ذروة محتومة.

استدار، فقد صدر عن الكلب صوتٌ خفيض منذر ومهدّد، بين الزمجرة والزئير.

عاد وذهنه مضطرب تجيش فيه خيالات حسيّة وتؤوده انفعالات الفكر المتحيّر دون وضوح.

أما تحت شجرة ضخمة عريقة المحتد في سجن القناطر، فقد دارت حكاية البنت، في ملابس السجن البيضاء السابغة التي توحي – بشكلٍ ما – بثياب الراهبات أو القديسات أو التائبات الطاهرات. حكت حكايتها، إن صدقاً وإن أوهاماً، حتى لو كان ذلك كله نتاج مخيلة سقيمة أفسدتها مسلسلات التليفزيون التافهة، فأين في هذه الحكاية ما يسمى الحب، أو حتى مجرد الشبق النقيّ – النقيّ من الجشع الفجّ أو من القهر الأكثر فجاجة؟

"أنا كنت شغالة عند دكتور، وفي يوم كان عندي صداع فرُحت الأجزاخانة للواد اللي بيشتغل فيها أطلب منه شريط حبوب الصداع فهو سمع "البيه جوز الدكتورة" وقالّه خليها تتدور لي، وبقى يديني حبوب صغيرة كده بيقولوا عليها صليبة وكل ما تخلص يديها لي فضلت على كده ييجي سنة لحد ما بقيت أوطّي على رجله أبوسها وأقول له خد اللي أنت عاوزه وإديها لي فبقى يستغلني نام علىّ مرة واتنين وبعدين استحقرت نفسي لأن الدكتورة بتعاملني كويس جداً فسبتهم والدكتورة بعتت لي وقالت لي إنتي سبتينا ليه إنتي عارفة إني ما بعرفش أعمل حاجة قلت لها بلاش.

أنا كنت راكبة المواصلات وباطلع الفلوس فواحد من بلدنا شـــاف الحبوب معايا وقال لي إنتي إتجننني دي قضية دي حبوب مخدرة إسمها صليبية دا لو معاكي فلوس ما تعرفيش تصرفي عليها ولازم تبطليها وإلا هتبقي زي اللي بييجوا في التليفزيون، فرحت اتعالجت عند دكتور ساكن عند أختي وسألني مين إداكي الحبوب دي خفت أقول له. واتبهدلت فـــي العلاج وبقيت أشرب سجاير واشتغلت كل يوم عند واحدة وبعدين ييجـــي لي حاجة في دماغي وأدوخ وأسيب الشغل.

فضلت على الحال ده ست شهور وبعدين هوه بعت لي سواق عنده علشان أروح أكلم الدكتورة وآخد لها خضار معايا رحت لقيته هو اللـــي في البيت لوحده مسكني بهدلني ونام علي وبعدين إداني لفة ما أعرفـــش فيها إيه وقالي خديها وامشي علشان الدكتورة زمانـــها جايـــة وإدانـــي الخضار علشان محدش يحس إن فيه حد في البيت.

يا دوبك وصلت البلد ولقيت المباحث ورايا وماكنتش لسه وصلـــت البيت فجم المخبرين قالوا لي كلمي حضرة الضابط فناديت على وحـــدة جنبنا واديتها الشنطة وقلت لها خديها روحيها البيت ورحـــت معـــاهم. ودوني المركز سألوني عن دهب ناقص من عند الدكتـــورة قلـــت لـــهم ماخدتش حاجة مسكوني ضربوني على رجليـــا بالكربـــاج وبـــهدلوني والدكتورة جت لي وسألتني وقلت لها على اللي حصل وقلـــت لـــها إن الدكتور أداني لفة ما أعرفش فيها إيه فقعدت تزعق للضابط وقالت لـــه

مالكش دعوة بيها وقالت لي تعالى فين الحاجة دي قلت لها كـــانت فـــي شنطة الخضار زيّ ما هيّ بافتح اللفة لقيتْ العلبة بتاعتها فـــهي قـــالت خلاص خلّيكي والموضوع انتهى على كده قال لا دي هتيجـــــي معانـــا علشان نقفل المحضر فقالت تعالي ما تخافيش مش هاخليهم يبـــهدلوكي فرحت معاها عادي فالضابط مسكني ضربني وكهربني وبهدلني لأنــــه صاحب الدكتور والدكتور كان موجود معاه وموتّوني إزاي أني أقـــول للدكتورة على اللي حصل.

وفي الفجر غمّوني وودّوني في حتة ما عرفش أنا فين خبّوني فـــي الحجرة، الحجرة زي ما تكون في بيت وليها شبابيك متقفلـــة بالخشـــب علشان ما تتفتحش وقعدت تلت شهور فيها وكان بيجيب لي الأكل وينـام عليّ وساعات يبعت لي الأكل مع واحد في القسم والضابط جـــالي فـــي مرة ونام عليّ وفي يوم إداني عصير وقال لي "اشربيه" شربته بـــابصّ لقيت نفسي في الشارع ولقيت الإسعاف وخدوني على المستشفى.

وفي الوقت ده أبويا دوّر عليّ ولما مالقـــانيش اشـــتكى الضـــابط والدكتور فخدوا أخويا وحطّوه في قضية سرقة معايا وخلّوه يبصم علـــى الكلام من غير ما يعرف لأنه ما بيعرفش يقرا ويكتب.

وفي المستشفى الدكتور لقاني حامل والدكتور ده كـــان ابـــن عـــم الدكتور اللي أنا كنت باشتغل عنده وجوز بنته فقام فاشخْني علشان اسقط وفضلت في المستشفى عشر أيام أنزف وفي يوم جه دكتور تاني بتـــاع

نسا دكتور كبير جه بالليل وكشف عليّ وقعد يزعق لهم وقال لـــهم دي هتموت هتودّونا في دهية الله يخرب بيوتكم.

ودخلني على العمليات ونزّل العيّل وكتب في التذكرة علشان يـودّوا حتة الدم دي الطب الشرعي علشان تتحلل فقاموا ســرّقوني بـالتذكرة وكتبوا أنهم لقوها جنبي ولما أكون أنا سرقت التذكرة الحرز اللي هـو الدم ما يروحش الطب الشرعي وعملوا لي قضية سرقة التذكرة وخـدت فيها أسبوع حبس وخدت ست شهور في قضية سرقة الذهب.

لأني بعد ما خرجت من المستشفى رجعت أشتغل في البيوت مـن تاني وكان عندي حلق بعته بـ ٢٠٠ جنيه وبقيت أروح المحلة أجيـب هدوم العيال الصغيّرة وأبيعها يطلع لي حسنة ولا كده".

"العربي" الأسبوعية

١١ يونيو ٢٠٠٠

وُجدَتْ الجثة – ساخنة لم تزل – تحت الشجرة.

كانت ممزقة الوجه، ما زالت حركة الفم الممطوط بالدلع والدعـوة مرتسمة على الشفتين المفتوحتين بنداءٍ أو بأنينٍ صَمَتَ الآن، وما زالـت العينان عميقتيْ السواد حتى في ثبات المقلتين فيـهما نظـرة تحريـض

وطلب للارتواء عزيز المنال. في العنق طعنتان نافذتان متوازيتان على الجانبين من "أداة" حادة كالمخراز، وقد تجمد الدم على الصدر الذي تمزعت فوقه ثيابها السوداء السابغة وبان القميص الساتان الأخضر وبه قطّع طوليّ حاد كشف عن جانب من الثدي المخروطيّ البكر متماسك القوام لحمه الأسمر الأسيل ما زال نضراً ويانع النعومة.

قيل إن الكلب الأرمنت هجم على الفتاة فجأة. هو كلب معروف بشراسته وضرواته ووداعته أمام أهل بيته من عائلة الشيخ مصطفى عبد اللاه شيخ البلد. كيف قتّل الكلب بنت الشيخ مصطفى؟ من تلقاء نفسه؟ ما الذي أثاره وأهاجه؟ أم هو تحريض من ربّ الأسرة؟ هل كان الكلب أداة حادة لتطهير العرض؟

قيل إن الجثة انتشلت من مياه الترعة الجيّاشة بأول مياه الفيضان، كانت ومازالت حارة، لم يغمض الموت غرقاً عينيها المفتوحتين بالتحدي والطلب.

الحكاية تجري أن الكلب الضخم هبّ على سيقانه العالية فجأة، سمع الفلاحون في الغيطان صوت زمجرة خشنة من غور الصدر الأجش، وعندما قامت الفتاة هاجمها ولاحقها، لا تملك الحركة يميناً أو شمالاً، بل يدفعها الوحش كاشراً عن أنيابه يزمجر بتهديد لا مفر منه نحو شطّ الترعة، يضع رأسه خلف ساقيها، فوق الركبتين، ويندفع حولها ويحول دونها والتفلت منه، طعَنها. وفي الرعب والسعي إلى الخلاص وجدت

نفسها تنزلق على شط الترعة وتنحدر بقوة الاندفاع إلى المياه المـــوّارة وقد حفرت الدوّامة بئراً عميقة سقطت فيها من غير نجاة.

لم تذكر الحكايات والأقاويل أدنى خبر عن شريكها.

الرجل هنا أكبر وأخطر من أن تناله الأقاويل.

متعة الحب – أو عمل الحب – هل كانت تَعْدِل الموت؟

أتيك ١٩ يوليو ٢٠٠١

العمدة والخديوي

مهداة إلى مَيْ وتامر وهادي إيهاب
إدوار قلته فلتس يوسف عبد الملك صمويل
منقريوس هرمينا الخراط
وإلى بنت عمهم تيا أيمن إدوار الخراط

كان جدّه حنا أبو حنا عمدة ساقلته في الزمانات.

كان يطلع في الليل يفتش على البلد، على حصانه الأبيض الفاره.

يضرب على الطرق والمدقات بين غيطان القصب والذرة وعلى شطّ النيل، فوق الجسر العالي، مياه النهر الواسع العريض تهضبُ تحته بالليل المنير فقط بنجوم السماء الدقيقة والكبيرة بلا عدد في الزرقة العميقة، وعلى كتفه بندقيته الميري، عباءته الجوخ الخفيفة لونها في العتمة الشفيفة يضرب إلى الرمادي الداكن بينما هي في النهار تقلب على أصهب أكهب بين الحمرة والنبيذي – وهو اللون الذي يحبه – لون الكونياك والبرقوق وما يُؤْثره من لبس صوف أو قطن الذي سُمي، فيما بعد، اللون الخراطي.

الحصان يشمخ برأسه بإيماءة أصالة عريقة وفي جبهته تلك الغُـرّة البيضاء غير منتظمة التدوير ولكن ناصعة على الإهاب الذي لونه أيضاً خراطيّ بين الأصهب والبُنّي الفاتح، وذيله الغنيّ بالشعر كثيف وطويـل وغزير يضرب كفليه بقوة الفتاء وعرامة الحُميا.

عندما وصل إلى مَرْسَى المعدية المركونة على الشط، تحت الجسر الترابيّ المرتفع وعر الانحدار، وقف الحصان فجأة، ورفع ساقه اليمنـى ينَخَر ينفث الهواء بشدة بينما يتوتر المنخران ويتذبذبـان فـي حركـة حِساسيةٍ يقظة، لم يكن الحصان الأصيل واجفاً بل كأنما ينذر سيّده أن ثم شيئاً ما في غير نصابه.

خرج من بطن المعدية ثلاثة رجال ملثمون يديرون حول رؤوسـهم عمائم من الصوف الداكن متعددة الأدراج وعليهم زعابيط سود سـابغة، حفاةٌ يتسلقون مُرتقى الجسر بخفة وسرعة، عيونهم بالليل مثـل عيـون القطط أو الفهود.

لم يُرَع العمدة حنا أبو حنا. انتصبت قامته على الحصان الصـافن، ولم تتراخ قبضته على البندقية الميري وإن لم ترفعها أو تهزها عن كتفه المكينة، قال دون أن يرفع صوته، بلهجة السلطة التي لا تخطئ ولا رادّ لها:

– مين يا وله اللي تحت هِنيكِه؟ جوّل إنت وهوّه؟

– طب جُوّل السلام عليكم يا عمدة

- السلام عليكم يا خويا، إنت مين؟

رفع أطولهم قامة اللثام عن وجهه في نور الليل المضئ بـالنجوم، في العتمة الخفيفة، بانت ملامح هريدي أبو عويضة شيخ منصر قطـاع الطرق، داكن السمرة، حادّ العظام وضخم الجمجمة، شـفتاه غليظتـان سوداوان تقريباً وقشِفتان، ابتسم عن ناجذيه كأنه كلب أرمنـت بشـريّ ضخم.

قال العمدة بهدوء، وبنوع من الارتياح:

- هوّ إنت الله يشندل بالك وبال والديك يا أبو عويضه، خبر إيـه يـا واد؟

كان بين العمدة وقطاع الطرق ميثاق شرف مضمَر ولكن محـترم بحذافيره: لا يتعرض أحد منهم لأحد في زمام ساقلته، وبالعكس، علـى هريدي أبو عويضه واجب تأمين المارّة وأهل الزمام كله بـالليل، فـي مقابل أن يأوي هو ورجاله إلى كِنّ مأمون في الملجة التـي يختارهـا داخل نطاق الزمام، لا شأن لأحد بهم - وعلى الأخص بوليس المركـز - ولا يتتبعهم أحد إلى داخل منطقة الأمان الذي يبسطه عليـهم العمـدة حنا أبو حنا.

قال هريدي:

- يا عمدة ما تعوّجش على ناحية الساجية الجبِّلية الليلة دي.

* كيف يعني؟

– الضبع لابدْ هِنِيكه، هوّ وعزوة رجّالته عادْ، كلهم كليلة، جايين مـــن جبْلي، وطالعين الجبل الشرجي.

* إيش جابهم عندينا يا هريدي؟

– وراهم قول من أورطة السواري، القومندان شعلتهم اسمه حسن بيـك، ومعاه الساجنت العنجليزي عادْ.

* ريعْ يا هريدي.. أبْجَى أنا العمدة في أرضي وأسمع كلام الحرامـــي، أدخُل في طوع الحرامي عادْ؟

صمت هريدي وأعاد اللثام إلى وجهه الصخـــري الخشـــن، وقـــد تصلبت عيناه بحركة توقُّع القضاء المحتوم الذي لا راد لـــه ولا حيلـــة لأحد في صدّه. وفهم العمدة على الفور.

لكنه لم يتردد لحظة واحدة، شدّد قبضته على عنان حصانه ودفعـــه إلى الأمام، ناحية الجنوب، بخطوة خبب لا ســـريعة ولا وانيـــة، وقـــد ارتفعت قامته في هذا الليل نصف المنير نصف المعتم الذي ضربته لـــه الأقدار.

بانت ظلال الساقية القبليّة المستديرة، بخشبها المعرّق، وقواديـــس الفخار صامتة، مهيبة الحضور. في المنطقة المظلمة تماماً، قام الضبـــع على حيله، من بين ركام الجسوم المكوّمة حوله من رجالـــه، متلفعيـــن بالزعابيط السُود ومعتمرين العمائم السُود، لم تتحرك منهم إيمـــاءة، لـــم

يصدر عنهم صوت. أكمة صغيرة من أجسام جافة في صلابة الحديـــد ورهافة حِس قطط الليل.

وقف الضبع أمام الحصان، ربعة القوام، ممـــدود الخطـم، نـاتئ الأسنان الأمامية العليا التي سودها تقريبا، دخان المعسل وسنة الأفيـون، لحيته حول وجهه القشف نزرة الشـعر فـي جدائـل حالكـة وخفيفـة وحيوانية.

ندت عنه ضحكة الضباع التي تقع بين النباح والعواء.

قال دون مقدمات بصوت أجش:

- أنت جيت يا عمدة؟

فقط.

وسدد إليه بندقيته.

- طب خد.

رصاصة واحدة في القلب، تماما، دون انحراف قيد شعرة.

مال العمدة ببطء وهدوء - بما يشبه السلام - إلى الأمـــام وقـد دارت ذراعاه حول عنق حصانه، لم تند عنه نأمة، ولم تتحرك فيه خلجة. فقـط بدأ خيط من الدم ينساب من فمه.

ثبت الحصان لحظة، ثم استدار من تلقاء نفسه، ومضـــى بخطـوة الخبب التي لا لهفة فيها ولا توان حتى وصل إلى باب الـدوار الكبـير فوقف ثابتا، وصدر عنه صهيل لا تخطئ الأذن فيه نبرة النذير.

"مقدم هذا لحظرة الخديوي والأعتاب الكريمة عبدكم مرعشلي أحمد يوسف أفندم أنّي كنت بالأورطة السواري قومندانية حسن بك رياض وبرفقته السارجنت جون جونسون وجاء وقوعي من الحصان وكسر يدي اليسرى في أثناء ملاحقة الأورطة للشقي المدعو عمران الضبع، في ناحية ساقلته والجبل الشرقيّ. وجرى الكشف علينا بمعرفة حكيمباشي، وصار رفتي في شهر أغسطس الماضي ولم يتحرر بالرفتية الإصابة التي أصابتني وعند حضوري من بلد أخميم للمحروسة أعْرضت عن هذا الخصوص للحربية من أجل ترتيب معاش لي حسب الجارى، ولكن لعدم قيد الإصابة بالرفتية صار إحرامي من المعاش وحيث أني غريب الديار ومن بلاد الأكراد وليس موجود عندي نقود لترحيلي بلادي فألتمس شمول النظر بسفريتي على طرف الميري حيث أني أصبت ولا أليق للخدمة ولا يوجد أحد يعول حركة معاشي ومع كلٍ فالأمر مفوض أفندم".

مقدمه

مرعشلي أحمد يوسف

"يتحرر رسمياً لسعادة محافظ الإسكندرية لتسفير المذكـور لبلـده وتحررت بَوْصلة للسكة الحديد لأجل تسفيره للإسكندرية على حسـاب الحكومة".

في محضر التحقيق الذي فتحه مأمور مركز أخميم، قـال أبنـاؤه الرجال الثلاثة إنهم لا يعرفون القاتل.

كان البكباشي منير الصايغ يعرف أن القاتل هو عمـران الضبـع وكان يعرف أنهم يعرفون.

قال غالي: يمكن واحد بيحامي عن بهيمته وفاكر إن العمدة حرامي ليل.

قال اسطفانوس: يمكن رصاصة طايشة من الغيطان.

قال هرمينا: مين خابر يا بوي؟ يمكن واحد من الزراعة، الله أعلم. اسأل ربنا يا حضرة البكباشي.

أقفل المحضر على: "والفاعل مجهول".

في الليلة التاسعة والعشرين من بؤونه، شهد الجبل الشرقي تجريـدة صامتة من أولاد العمدة حنّا أبو حنّا، صـاعدين الممـرات الوعـرة، يتوقلون قُنن الصخور الشُمّ، يفترعون الأوعار والشعاب والمجـازات، بصمت كامل، مجرد أشباح سوداء بالسواد المحيق لا تنفصل جسـومهم عن جسم الليل، مادة طلب الثأر كتلة مُصمتة لا تنفذ منها ثغرة.

في طريق الصعود تجندل الناضورجي الواقف للحراسة والإنـذار، قُلب على ظهره، فمه مكتوم والسكين في قلبه تمامـاً، دون جـوَد قيد شعره.

فوجئ رجال الضبع، وشيخهم، بأشباح الانتقـام الصامتـة تقتحـم المغارة التي كانوا يظنونها مأمناً منيعاً لا يُنال، لم تكن عندهـم لحظـة يقفون فيها أو يرفعون سلاحهم.

انهمر الرصاص في الظلمة برعدٍ مفاجئ صاعق وومضات بـرق ساطع ونفثات دخان البارود الأبيض الخفيف من الفوّهات الحديدية التـي تعرف مرماها.

في بكرة الصبح كانت الضبابة البيضاء معلقة على المياه المحمـرّة الهادرة وعلى سعف النخيل وشواشي الذرة والقصب، بينمـا مراكـب شراعية كبيرة تقف أمام مَرْسَى المعدية على أهبة الإقلاع.

لكلٍ من أولاد حنا أبو حنا مركبان.

مركب فيها زلع المال، مترعة بالعملات الفضية والذهبية، كانوا قد باعوا الأرض والبيوت.

ومركب فيها الحريم والعيال.

رحل غالي حنّا أبو حنّا إلى طما.

وحطّ اسطفانوس حنّا أبو حنّا رحاله في أباهور.

اختار هرمينا حنّا أبو حنّا أن يستقر في أخميم.

كان هرمينا قد لقِن حرفة النجارة والخراطة من شيوخ الكار في مصر المحروسة. قبل أن يعود إلى ساقلته.

الآن كان هو الخراط الأوحد في أخميم.

في ذات يوم كانت دهبية أفندينا الخديوي تمر أمام أخميم في طريقها إلى أسوان.

كان أفندينا يلعب دور شطرنج مع قناصل الروسيا وإيتاليا وتشريفاتي السراى. وفي حموة اللعب انزلقت قطعة المَلِك من يد أفندينا، واصطدمت بقطعة الطابية، وتدحرجت مع قطع البيادة إلى حافة الدهبية وسقطت كلها في النيل.

كم كانت غضبة أفندينا مُضَريّة عارمة، لأن الخسارة من عمل يديه.

رست الدهبية الفخمة، بكل أبهتها الباذخة، في مرسى المعدية التي كان هريدي أبو عويضة ورجال ليله يأوون إليها في ليالي العمدة حنَّا أبو حنّا.

استيقظ أفندينا ثاني يوم كسيف البال حزيناً، فقد كانت قطع لعبة الشطرنج التي ضاعت صناعة إيطالية بارعة وفذة من طراز الباروك معقد الزخارف والنمنمة من خشب الأبنوس النادر وإلى أن يُطيّر التلغراف طلب إعادة صنعها من روما سيظل مزاج أفندينا في غاية الكدر.

بتحريات الأميرالاي ياوران السراي مع البكباشي مأمور المركز جاءت الأخبار عن حَرْفَنة خراطٍ صعيديّ وقبطيّ ابن بلد اسمه هرمينا.

صاح أفندينا بنزق دمه الألباني التركي:

- هاتوه .. في التوّ والساعة.

صعد هرمينا إلى دهبية الخديوي، هادئ الروع، واثقاً، عزيز النفس، وعرف المطلوب منه، فطلب فقط أن يرى القطع الباقية من بيادق الشطرنج: الملك، والطابية، والعساكر البيادة.

قال: هل يمكن لأفندينا أن ينتظر ٢٤ ساعة؟

فتح الخديوي عينيه في دهشة، لم يصدّق ما يسمع، وأفلت منه بنبرة احترام لعله غير واع:

- إيفا افندم .. ٢٤ ساعة بالتمام والكمال، ولا دقيقة زيادة.

تجري الأسطورة أنه بعد ٢٤ ساعة - بالتمام والكمال - طلب هرمينا بقية بيادق الشطرنج من الياوران، وأخرج من عبّه صناعته، وخلطها جميعاً، وأصرّ ألا يرى أحد نتاج عمله غير أفندينا الخديوي بذات نفسه. وضع هرمينا القطع كاملة أمام أعين أفندينا، فلم يصدق عينيه مرة أخرى، إذ لم يتبين القديم منها والجديد أيهما المصنوع على يدي هرمينا الخراط وأيهما نتاج صنعة الأسطوات الطلاينة في روما، يقلبها يميناً وشمالاً، رأساً على عقب، فلا يميز أبداً أيهما الإيطالي الأصلي وأيهما الأخميمي المصري الذي لا يقل أصالة.

قال أفندينا:

- هرمينا أفندم. تمن علي.. اطلب ما تريد. طلبــك مســتجاب، عــايز أبعدية كم فدان؟ عايز رتبة بكوية؟ أطلب هرمينا.

قال هرمينا:

- أطلب فقط من أفندينا أن أركب معه العربة الحنطور الخديوية وأذرع بها شوارع أخميم على مرأى من كل أهلها وأنا بجانب أفندينــا رأســا برأس، وحدنا.

الذي أحنى رأسه بأهون حركة احترام كان هو أفندينا.

سارت العربة الخديوية وفيها أفندينا وهرمينا فقط في شوارع أخميم، ومن يومها عرف اسم هرمينا الخراط، ونسى اسم العمدة حنا أبو حنا.

وتوته توته خلصت الحدوته.

أتيك ٢١ يوليو ٢٠٠١

عيد ميلاد تامر الخراط

أمّ رَجَب

كان الطريق يقطع أرض الصحراء في اتجاه وادي النطرون.

إلى جانبٍ منه بحيرة رخراخة ضحلة الماء يضرب لونها إلى احمرار طفيف في الضحى وإلى ما يشبه فضة كابية صَدِئة في آخر النهار.

وإلى الجانب الآخر مضارب النجْع، خيامٌ واطئة عريضة من جلود جمال اغبرّت وتصلّبت بفعل سنوات من صهد الشمس ووقع رمل الزعابيب الشتوية أو الخماسين، بين بيتين ثلاثة من الحجر الأنتري من دور واحد لها أسوار منخفضة وشبابيك ضيقة، دائماً مقفلة.

راشدة البنت البدوية ترقب البحيرة وهي ترعى ثلاثة ماعز تلقم عشب الصحراء الخشن وتمضغ الأوراق الجافة المتساقطة من أشجار عجفاء شحيحة على يمين السكة وأنت داخل جوّه في الاتجاه المقابل لمديرية التحرير – كما كانت تسمى في آخر الخمسينيات.

مبنى الرست هاوس القائم وحده في الخلاء منارته العالية ينبثق ضوؤها بالليل يدور في كل اتجاه ويلقي نوراً وهاجاً على العراء

الموحش في حين تقف السيارات، التي لم تكن كثيرة، بين ساحة المبنى وبين الجمعية الاستهلاكية التعاونية العامرة بالبضائع. تذهب راشدة إليها كلما دعت الحاجة لشراء باكو الشاي ودخان المعسل والسكَّر السنترفيش الأقة منه بستة صاغ عزيزة، وتقف مبهورة أمام السيارات الفورد والأوستن وأحياناً الشيفروليه المجنحة الطويلة. فيدعوها أحد أصحاب هذه السيارات مبهوراً من ناحيته بجمالها الحوشيّ الفطريّ يلاغيها بما يفتح الله عليه من كلام البهوات المنمقّ اسمك إيه يا شاطرة؟ بتعملي إيه يا حلوة؟ طب ممكن تديني أدّ لتر كده لبن طازه من معزتك أمّ دمّ خفيف؟ فلا تعرف ما هو اللتر ولكنها تنظر إلى الرجل مباشرة في عينيه بعين قوية قارحة لكنها نجلاء كضربة سكين يستعذب الرجل سطوتها ونفاذها، وهو يرمق جسدها الممشوق الصبيّ، نهداها رمانتان – كما يقال – وراء ثوبها البدوي الأسود، كالح اللون أطرافه وأكمامه متآكلة قليلاً، ومطرز بنقوش عربية خضراء وصفراء، بطنها المستدير يلفه حزام أحمر عريض، والحَلَق المدوّر الكبير يهتز تحت أذنيها بجانب الوجنتين الصابحتين تخامرهما سمرة خفيفة ناعمة. هزّة القرط وهي تصطدم بصفحة الوجه الصبوح فجأة تثير غُلْمة الرجل الذي ظن أنه قد سئم عشق النسوان من زمن.

أين ومتى حدث الذي حدث؟

في السيارة الشيفروليه الواسعة ساعة الغروب؟

في دِرا مباني الرست هاوس قبل أن يطلع قرص الشمس مـــدوراً مشتعلاً من حافة الأفق؟

مَنْ يدري؟

كانت أمها قد ماتت في ولادتها، أبوها الشيخ، مع كـــل خشـــونته، أحبها كما تحب الأمهات، لكن كله إلا العرض.

لم يعد من الممكن أن يسكت على شرفه وشرف النجع كلـــه وقـد راح بطنها يستدير ويكبر يوماً بعد يوم.

لم تنبس راشدة بحرف تحت وطأة الضرب الممزِّق أو حتى مــــع دَحْلَبة عجائز النجع ووعودهن المعسولة، ولا عندما اختلى بها ابن عمها بلال تحت أنظار شيوخ النجع من بعيد وراح يمنيّها بالزواج على الفور، فقط إذا قالت مَنْ فعلها؟

كانت راشدة قد قُرئت فاتحتها على الولد بلال ابن عمـــها، وهمـا مازالا طفلين، حسب عوايد النجع.

بلال الآن يافعُ فتىّ طرّ شاربه واشتد عوده، قال وهـــو يتحســس شفرة خنجره المقوس القصير في جرابٍ من جلد الماعز تحـــت ثوبــه الأبيض القصير، على السروال الأبيض الذي ينزل حتى كاحليه:

- أنا لها يا عم فرج سيبها لي.

قال عم فرج بصرامة وغضب، كأنما على الرغم منه:

- يا بني صلّ ع النبي أنا لسه على وشّ الدنيا والواجب واجب.

شيوخ النجع الملتمّين أمام بيت عم فرج مأمون، البيت الوحيد بين مضارب الأهواء وخيامٍ رازحة الأوتاد، يقف وحده، في فسحة المدق الرمليّ أمام سور البيت الحجري الواطئ. لم يتكلموا، هزوا الرؤوس المعتمرة بالعمامات البيضاء المخنصرة التي تتدلى ذوائبها جنب الأذنين. علامة الموافقة على القرار.

سوف يتولى المهمة عم فرج أبوها وأقرب الناس إليها وجرحه أعمق من أي أحد لن يبرأ إلا بأن يأخذ الأمر بنفسه، بين يديه.

هكذا كان.

ليلتها ضربها عم فرج أبوها حتى تورّم وجهها وبانت آثار العصا الخضراء المقطوعة من شجرة الأثل خطوطاً حمراء داكنة على ظهرها وبطنها، خصوصاً على بطنها. البنت لم يندّ عنها صوت ولم تفلت منها صرخة، فقط كانت تكتم التأوّه المحبوس في الصدر الكظيم.

وعلى نور اللمبة الصاروخ فتيلتها تتراقص في كوز الصفيح الصدئ على حائط البيت الخارجي أجبرها الشيخ – وأطاعته فقط بقوة الحب – على أن تقفز فوق السور المنخفض على الرمل الجاف الصلب في المدق من حوش البيت لتسقط أمام البيت وتعود، مرةً بعد مرةً، وهو وراءها بالعصا لتقفز من الخارج إلى حوش البيت، ثم تقفز من جديد، لتسقط من جديد.

كان يريد أن يقضي عليها وعلى ابن الحرام معاً.

سقطت على حجر مدبب لم يكن ظاهراً جداً، حادّ السنّ كالسكين، شقّ جانب وجهها الأيمن جنب أذنها مباشرة شقاً طولياً، أغرق الدم جلبابها الذي كان قد اتسخ وتَرب وتشعثت فتحة تقويرته في خيوط وفِتَل وعلقت به بقع من الرمل والدم وبلله العرق.

عندما سقطت هامدة الحركة في الحوش كانت اللمبة الصاروخ قد انطفأت.

(ليس في هذا أي مجاز أو استعارة مبتذلة عن انطفاء الحياة في بدن راشدة، كالمعتاد في الأفلام القديمة. لم تكن راشدة قد ماتت).

عم فرج كان قد انهدّ وأنهكت قواه القليلة على أي حال التي أعياها جهده في ردّ الشرف وغسل العار وحبه المغدور المنتهَك لبنته الوحيدة. عندما قام يتوضأ ويصلي الفجر ويعود يواري جثة بنته التراب لم يجدها في الحوش ولا في البيت.

واتاه خاطر مفاجئ. حَفَرَ في الحوش عميقاً وردم الحفرة وكان شكلها يوحي بوضوح أنها قبر البنت الفاجرة.

ومن ثمَّ فقد انتهت شعيرة الثأر للشرف المهدور ونسى النجع حكاية راشدة. مات عم فرج بعدها بيومين، ضربه الداء بالهزال والشحوب وخَوَرَ القوى وسقط في حوش بيته المهجور.

أمّ رجب أقامت نصبة شاي وقهوة على كورنيش النيل، بعد كازينو الشجرة بقليل.

على رصيف الشارع وتحت شجرة كثيفة منخفضة الأغصان، كانت عدة أمّ رجب وابور الجاز يفحّ بأزيزٍ غير مسموع تقريباً بين خطفات متلاحقة من أصوات عجلات السيارات، الإبريق الكبير وقد اسودّت جوانبه استقر عليه لا يكاد ينزل عنه، وجنبه صفيحة مملوءة من ماء النيل تغسل فيها الأكواب والفناجين والملاعق، وأمامها كرتونة صغيرة بها باكوات الشاي والسكر والبن تغرف منها بحرص وتدقيق المقادير محسوبة، ويأتي زباينها من عساكر المرور وعمال البناء الذين يشتغلون في إقامة وتشطيب صرح برج التجارة العالمي السامق، ينزلون على السقالات الخشبية ويتلمسون لحظة رفاهية حسية إذ يشفطون الشاي السخن نار، الثقيل كوبيا، من الأكواب الزجاجية المغبرّة قليلاً ويضحكون مع أمّ رجب التي هي دائماً في حالة رضاعة لطفل متكرر اسمه رجب، دائماً، سبحان الله، ويتعلق بأثوابها طفلان مشعثان، ولد بجلابية خَلِقة على اللحم وبنت بشعر أكرت، لا يعرف أحد مَنْ أبوهم على وجه التدقيق، فلها دائماً زوج يتغير باستمرار ينام معها على فرشةٍ مكنونة تحت شجرة الجميز الضخمة، وجهها المدوّر الصبوح مبتسم وهي ترضع الطفل من ثديٍ وافر ما زال متماسكاً بشكل غير مألوف تلقم الإبريق بالشاي فيغلي ويخرُط طويلاً أو تحرك ملعقة الشاي الكشري تذيب الثلاثة أربع خمس ملاعق سكر وفي الوقت نفسه تصنع

قهوة البن المحوّج وربما معه ستّة أفيون تخفيها وتعطيها في السرّ في الكنكة المخصوص للأسطوات أو صولات البوليس.

أمّ رجب تلف شعرها الأسود، وفيه خصلة واحدة شهباء، بمنديل أبو أوية، عايقة وغندورة حتى إن بدت عليها أمارات المرأة الأربعينية أو ربما هي في الخمسين، ثمّ غضون رقيقة جداً على جلد وجهها فوق الشفة العليا تتأكد عندما تبتسم لأحد زبائنها أو أحد رجالها ابتسامة عملية محترفة أو غزلة شبقية على السواء. مازالت في أساريرها المفترّة عن نُضرة راضية شبعانة ملاحة فطرية منوّرة، وإن كانت عيناها الواسعتان تندب فيهما رصاصة، نظرتها جريئة قارحة وجنسية ولكنها تنطوي على هبوة من مرارة.

كانت أمّ رجب تحرص على إرخاء خصلة من شعرها، تحت المنديل، على جانب وجهها الأيمن جنب أذنها مباشرة، مع الحلق المدوّر الكبير يهتز على صفحة الوجنتين، حتى إذا اندفعت في مساومة عنيدة صاخبة أو في نوبة رَدْح نسائي عريق لزبون يماطل في دفع حَقّ الشاي، قد تتكشف تحت الشعر المتناثر ندبة طويلة حادة، شقّ رفيع جداً بلون أقل سمرة من لون الوجنة الخمرية.

في آخر النهار كانت أم رجب تتنهد، بإرهاق كامل:

– آدحْنا بنطفح الكوتة عشان ما نربّي العِيّلين. أهي عيشة وأخرتها يا لآ السلامة.

كانت عندئذ تذبل، وجهها يتغضّن ويتهدل وتغيض منـــه الدمـــاء، حتى لتوشك أن تبدو قبيحة الشكل مهدّمة.

من وقت إلى آخر مرة أو مرتين في الأسبوع يطب عليها رجـــب ابنها البكري الذي أخذت منه اسمها.

دائماً شعره مسبسب وعيناه منتفختـــان تحتـــهما كـؤوس الجلــد المتورمة وهو على وســـامة ملحوظـــة وإن كـــانت شــفتاه غليظتيــن شهوانيتين، يقضي أيامه مسطولاً أو نائماً لا أحد يدري أين، ربما فــــي خرابة من خرابات بولاق أو جحر من جحور عشش الترجمان، ولكنــــه دائماً يلبس قميصاً يبدو أنه نظيف ومَكْويّ وغالٍ حتى لو كـــانت ياقتـــه المفتوحة بها فتل ناصلة، وبنطلون جينز، لا يجلس جنب أمه، لا يســـأل عن الرجل الذي ينام معها سواءً كان زوجها الجديد أو رجل غير محـــدد الهوية تماماً، ولكنه فقط، وهو واقف، يطلب منها مـــــن "بريـــزة" إلـــى عشرة، يمد يده بصلف وكبرياء كأنه لا يطلب ولا يــــأخذ بـــل يتكـــرم ويُعطي. أمّ رجب تدس يدها في صدرها وتخرج بها مكوّرة على لقـــــة أوراق خضراء من تلك التي يحبها قلب الولد الصايع الضايع التلفـــــان، حبيب أمه، هي تعرف أنه سيرمي النقود فـــــي المدعـــوق البرشـــام أو

الحشيش أو حتى البودرة، تتنهّد فكم كانت "البريزة" العشرة قروش، زمان وليست بريزة اليوم أمّ عشرة جنيهات، عزيزة المنال، أيام..!!

كانت الهانم تطل على أم رجب، من دهبيّتها على النيل. الدهبية مسدلة الستائر على نوافذ المشربيات المشغولة بخرط دقيق لا تكاد يتسلل منه نور النهار الصيفي الساحق، ولا تكاد تلطّفه نسمات النيل الذي هبط ماؤه، نحن في شراقي بؤونه.

والمراكب الشراعية الضخمة مفرودة الأجنحة ساكنة، طيور ضربها الحرّ والهواء الجافّ السخن، وبالليل يمر الفواعلية على شط النيل الموحل تحت الجسر، يخوّضون بسيقانهم السوداء العضِلة الناحلة، وعلى أكتافهم الحبال الغليظة يجروّن المراكب بينما نوتية يغرزون عصيّهم الطويلة في ردغة قاع النيل يدفعون الجسم الخشبي الضخم بصعوبة لينزلق على سطح الماء.

الهانم تدخن الشبوكش الطويل من وراء مشربيتها، الدخان التركي الناعم تنفثه من أنفها الدقيق، فمها الواسع، خضابه ربّاني، تمص طرف البوصة الطويلة، شعرها معصوب بتربيعة حريرية صفراء من دمقس الشام، تنزل منها ذاؤبة مشرشرة على صفحة وجنتها المدورة. الثوب الحريريَ ينشق عن صدر وافر حرّ، لا تكاد تثقله عقود البانطانطيف الذهبية، حلقة لامعة مشغولة بعد حلقة تستدير بالعنق الطويل الهفهاف.

كل ليلة، على أواخر الليل، تحدقّ الهانم إلى أمّ رجب التي لا تكـــاد تصدق ما تراه، وتؤمن يقيناً أنها لا تحلم، بل هي تردّ على نظرة الـــهانم من وراء نصبتها المطفأة الآن، ندّاً بندّ، دون أن تغضّ من بصرها.

في الأيام الأخيرة كان يُرى رَجَـــلٌ فـــي زيّ بـــدو مطـــروح أو الصحراء الغربية على أي حال، الصديرية الزرقاء الداكنـــــة مطـــرزة الحواشي بنقوش ذهبية ناصلة، على قميص أبيض يميـــل إلـــى طويـــل وسروال أبيض سمنيّ يضيق عند الكاحلين، يحوم حول نصبة أمّ رجـــب كأنما يشاور عقله يطلب منها كوب شاي أم يغضّ النظر.

طويل وناحل وقضيف مشدود القامة، عيناه غائرتان في محجريهما فيها نظرة حادة مترقبة ومتلصصة في الوقت نفسه، مقحاماً ومســـتخفيً بها في الوقت نفسه.

على خاصرته تحت شق مفتوح في تفصيلة قميصه جراب مقـــوس واضح أنه قديم من جلد الماعز أو الجمال، يبرز مـــن أعـــلاه مقبـــض خنجر من النحاس اللامع المجلوّ بعناية.

أمّ رجب تلقي إلى الرجل الغريب نظرات ســـريعة فيـــها توجُّـــس وكأنما فيها أيضاً شيءٌ من التلهّف، يخامرها هاجس غير مســـتبين أنـــها تعرف هذا الرجل، تعرف هذه النظرة، من زمن قديم.

اصطبح الصباح في آخر يوم على صراخ آخر طفلٍ جنب فرْشـــة أمّ رجب، الولد يفتقد رضعته الصباحية ويُعِول جوعاً أو حساً بـــالفقدان الذي لا عوض عنه.

جاء الناس ومعهم صول المرور العجوز أبو شريطين يســتطلعون الحكاية.

كانت أمّ رجب مقتولة تحت الشجرة الصموت، حافظة الأســرار. وعلى صدر ثوبها الأسود المشغول بنقوش بدويّة خضراء باهتة بقعة دم واحدة ما زالت تتسع ببطء، طعنة واحدة عميقة، مفتوحة ما زالت، فـــي القلب.

عيناها مغمضتان بسلام.

مازالت دافئة.

كان على وجهها ابتسامة رضا وتسليم نهائيّ وكأنما هي في روائها ووضاءتها بنتٌ صبوح في عزّ الصبا. هناك في هـــذا الوجـــه قُبـــول يشارف الترحيب.

أتيك ٢٣ يوليو ٢٠٠١

تحت السلسلة

هل أنت حقاً قد مضيتَ ومضتْ بك الأيام في كرّها وفرّها الذي لا يتوقف ولا يكف عن الجريان؟

أم أنك مازلت كامناً – وجلياً أحياناً – في الحاضر الراهن الذي لا يريم؟

كأنما كان بالأمس فقط – أو ربما هذا الصباح – عندما قرأتَ، أنتَ، في صحيفة "المصري" إعلاناً يفاجئك بأن عدداً خاصاً عن "السيريالية" من المجلة الجديدة التي يرأس تحريرها رمسيس يونان سوف يصدر خلال الأسبوع المقبل، وأنه يمكن إرساله إلى القراء عند تلقي حوالة بريدية بمبلغ عشرة قروش صاغ على عنوان المجلة، في شارع الشريفين، بالقاهرة. لم تكن القروش العشرة، مع ذلك، شيئاً هيناً على طالب السنة الأولى من كلية الحقوق بجامعة فاروق الأول في الإسكندرية.

وهل كان في هذا الصباح المبكر، أم أنه اليوم فقط، أن تلقيتَ المجلة بالبريد على عنوان كلية الحقوق بمحرم بك، ملفوفة مطوية، تفوح منها رائحة حبر المطبعة ما زلتَ تشمها الآن؟

تلك إحدى الكشوفات التي أضاءت، ومازالت تضئ، روحك. أنت الآن في السادسة عشرة أم في السادسة والسبعين؟

أراكَ – أو أراه – نحيلاً هائش الشعر، لم تعتد بعد على نظارتك الطبية فأنت حديث العهد بها، في البدلة الشارْكْ سكِينْ الناعمة البيضاء، الضاربة إلى البيج، والكرافتة الحمراء بالنقط البيضاء – ما زلتَ حتى الآن تكرّرها – لم تكن قد ارتديت ربطة عنق من قبل قط، والحذاء بلونين الأبيض والبُنيّ، ومع هذه "الأناقة" فإنك في داخلك مشعّث الروح مشتّت بين الشك والإنكار، بين اليقين والإيمان، وقد سهرتَ ليلة الأمس حتى الصباح تكتب قصيدة، كنا نسميها أيامها، شعراً منثوراً، وتقرأ أشعار جون كيتس، وبيرس بيسش شيلي، وتفتح دفتر يومياتك فكأنك كتبتها ليلة الأمس، أو ستكتبها، غداً، مازالت هي هي بالنص، بالحرف الواحد:

"١٤ مارس ١٩٤٢:

"كم هي هائلة وعميقة، تلك الوحدة الملعونة، لقد حاولتَ مراراً، حاولتَ كثيراً، أن تحس بالله، أن ترتفع إلى الجوّ الأسمى، حاولتَ كثيراً

أن تؤمن، بأيّ شئ، أن تجد صخرة تسند إليها قدميك، بيـــن كـــل هـــذه الأمواج، ولكنك فشلتَ، دائماً، وفي كل مرة. ومع ذلك فليــــس لـــك أن تيأس. لماذا؟ أنتَ لا تدري. الإيمان؟ اليقين؟ يا إلهي ..!

مرة أخرى، عدتَ إلى عالمك القديم، عالم الفنّ النقيّ الصافي، عالم التحليق بعيداً، في الأجواء اللامتناهية الزرقاء التي تضمها دفتا كتـــاب، عالم الخفقات النابضة الحية، عالم الحياة التأملية السامية، عالم الدمـــوع الهادئة العذبة، لا تلك الدموع المريرة المحترقة الساخرة المِلْحة، دمــوع المرارة والانسحاق بين الوحول. مرةً أخرى عدت تمضـــــي الســـاعات الطوال، الطوال، غارقاً في كتاب، أو بين أشعار، مرة أخـــرى عـدتَ ترشف كوباً من ماء بارد عذب بعد احتراق الظمأ المُلهب القاسي".

"١٦ مارس ١٩٤٢:

هل هي بداية المهزلة الحقيقية أو ختامها، أنت لا تدري. هل هـــي مهزلة حقاً، أم مأساة، أم مزيج مرعب من كلتاهما؟ في جيبك مقدار تافه من النقود، وفي روحك ثورة لا حد لها، ويأس لا حد له، هل تُشفي على النهاية، أم على البداية، بداية حياة حافلة بالجنون وبالتشـــرد وبـــالعذاب وبالسرور والمرح الذي لا حد له، حياة التشرد والحرية والفوضى، أنت لا تدري، أم هي النهاية؟ العَدَم؟ اللاشئ؟

بل أنت تدري شيئاً واحداً، أنـــك يجـب أن تتحـرر، أن تحطـم الأسوار، أن تمزق القيود، أن تنطلق، ولو كان الانطلاق إلى الجحيـــم، إلى العدم، ففيم يهمك؟ الليلة ستودّع كل شئ عرفته من ستة عشر عاماً. ستشرف على عالم جديد ملئ بالأنقاض والوحول والعجـــائب، وعليـك أنت وحدك أن تشق طريقك في هذا العالم الجديد الغريب. أي مخلـــوق خطر ذلك الذي يستطيع أن يختار بملء حريته بين الحيـــاة والمـوت. الحياة والموت؟ كلاهما خطير، ملئ بالمجهول، بالعجيب، بالرائع. ولكن للحياة حدها الأقصى، وبعدئذ ما أسهل الانزلاق إلى الشاطئ الآخر.. ما أفسح البحر، وأرهبه، وأروعه، وأحناه، البحر الذي أملتَ وما تـزال، أن تعبره إلى عالم آخر، ملئ بالسعادة والسموّ ..

نعم، لماذا تخدع نفسك ..! إنها هي، يرجع إليها الكثير من آلامـك، أليس كذلك؟ أنت تحلم بها باستمرار، وبيأس، هي التـــي أوحـت إليـك بقصيدتك "أيتها الغريبة عني" كنت تناجيها في يأس تاعس لا حدود لـــه، هي التي تسيطر على مخيلتك، على أحلامك.

هل تكتب قصتك؟ نعم، لشد ما ستبدو جافة هزيلة، تلـــك القصـــة. كيف تبدأ؟ من البداية على أية حال.

كان ذلك يوم أحد، اليوم التالي لبدء الدراسة الجامعية، وحـــدث أن تأخرت فلم تبدأ دراستك إلا في اليوم الثاني، وفي آخر حصـــة، فتحـت

باب الفصل، كانت حصة "شريعة إسلامية" وكـــان الفصـــل مزدحمـــاً، وفوجئت. رأيتها في الصف الأول، فاتنة، ناضرة، متألقة، ألقت عليـــك نظرة عابرة، نظرة لا معنى لها، على المخلوق المتعثر الخجول، الـــذي سار إلى آخر صف، في هدوء، وجلس في آخر مقعد.فقـــط أحسســت بقلبك يغوص، وبالدماء تندفع إلى وجهك. أحسست عندئذ بالشعور الـذي لم يفقد قوته لحظة واحدة، طيلة أسابيع وشهور لا نهاية لها. شـــعورك بنصاعتها وسطوعها ونضارتها وحيويتها الدافقـــة الحـــارة الجَســور، وبظلمتك وصمتك وذبولك وجمودك المنطوي على ذاته يرشف آلامه في سكون مرير.

وفي اليوم نفسه، ذلك الأحد، تركتْ هي المُدرَّج في العشر دقـــائق بين مُحَاضرتيْن، فاقتربت من مقعدها الخالي، في جـــرأة لعلـــها غـــير معهودة، (لعلها إحدى خصائص تكوينك نفسه)، وقفت لدى المقعد. كـــان اليوم حاراً، في أكتوبر السكندريّ، وكانت قد تركـــت جاكتتـــها علـــى المقعد، وتركت كتاباً، وانحنيتَ تقرأ عنوان الكتاب، كان كتـــاب شِـــعر بالفرنسية "لامارتين"، شعرتَ بنظرات الطلبة، متسائلة، متطلعة، فمشيت في تثاقل وبطء، ونوع من استهتار اليأس.

عجيب. إن الأمل لم يساورك لحظة واحدة، أي نوع مـــن الأمـــل، وبدهيّ أنك لم تحلم بشيء غيرها طول يومك وطول الأسبوع والشـــهر

والسنة. من العبث أن تصف مشاعرك، فكل شخص يعرفها، أو يمكـــن على الأقل أن يستنتج ماهيتها، فقط كان يسودها نوع من الظلام واليـأس والانزواء، وطيلة الوقت تحاول أن تخدع نفسك، وتصمت، وتصمـــت، وتصمت، هذه الوحدة القاتلة التي كادت تدفعك للجنون، هـــذا الشـــعور القاتل، من السهل تفسيره الآن. كل هذه الآلام التي صببت القليل منـــها في هذه المذكرات، من اليسير أن يُعرف مصدرها، ولكنك، تتساءل، هل هذا وحده تفسير الآمك، ومصدرها؟ أنتَ تشك في ذلك كثيراً.

إن التفسير في نفسك قبل كل شئ، إنها "نوبة شَغَف" كما تســـميها أنتَ، ككل النوبات السابقة، فقط هي أشد حدة وعنفاً وروعة.. كل هـــذه الفتيات أحببتَّهن، في صمت، في صومعتك الموحشة، كما يحب الراهـب الله. كلا، بالطبع، إنه ليس حباً إنسانياً، إنه نوع غريب من الحـــب، إذا صحَ أنه حب على الإطلاق. إنه أشبه شئ بموكبٍ من الأحلام الجميلـــة، من التأملات الطويلة، العذبة، المريرة، ومن اليـــأس والانطـــواء علـــى النفس والنجوى واللهب المدفون، موكب مــــن الكوابيـــس والتمـــردات الصارخة التي تتمزق في النهاية، وتسقط في التراب، من الســـخريات، من الابتسامات المرّة، من الدموع التي تُذرف فـــي الســـكينة والوحـــدة والظلام. كنت تدفن نفسك بقسوة رائعة، وتفضّل العذاب الذي لا نهايـــة له.

وهكذا عشتَ تراها كل يوم أكثر نضرة وحيوية وروعة.

وصُغْتَ من ذلك كله حياةً حافلة عجيبة تعيش فيها لنفسك.

وهي كانت تغذي ذلك كله بنظرة أو ابتسامة أو بمشيتها الجريئة اللامبالية.

وصَفْتَها بأنها "فتاة خطرة" وأنها تنثر حولها الحب كالطاعون في كل مكان.

ولكنك لا تنسى قط تلك النظرات الطويلة العجيبة التي كانت تلقيها عليك، كما يخيّل لك، يخيّل لك؟ كلا، هو الواقع مهما حاولت خداع نفسك، الواقع الذي لا يمكن تفسيره. ولكن ما جدوى هذا كله؟ لا شئ .. تسخر من أحلامك وترسل في وجهها الضارع النبيل بقهقهات وقحة في غير اكتراث".

ألم تنزل ليلتها، في ١٦ مارس ١٩٤٢، من بيتكم في شارع ابن زهر، راغب باشا، وفي روحك ذلك العزم المعقود؟

لم تترك "رسالة أخيرة" ولم تكن قد رتّبت أوراقك وكتبك القليلة كما قرأت أن الراحلين، عادة، يفعلون، ولا قبّلت أمك وأخواتك قبلة وداع، لا شئ من تلك "الطقوس". لكنك في صميم النفس كنت ذاهباً – كما قلتَ – إلى "الشاطئ الآخر".

الليلة كانت شاتية، وريح الإسكندرية في أول الربيع مازالت باردة وقوية تصفع وجهك الحارّ، جاكتتك الكاروهات الاسبور، خضراء

باهتة، لها جيوب خارجية، قميصك مفتوح، بنطلونك الرمادي متهدّل غير مكويّ، وأنت تخبّ عبر شارع إيزيس ثم ساحة محطة مصر ومن أمام أكمة كوم الدكّة التي تحتلها ثكنات العساكر الإنجليز إلى شارع صفية زغلول تلمع أرضه لمعة مرآة سوداء حتى إذا عبرت شارع السلطان حسين سرت بجانب شريط الترام الذي يقطع شارع المسلّة ثم إلى كُشك ناظر محطة الرمل، ومبنى القنصلية الإيطالية العريق، حتى رصيف الكورنيش.

أنت في هذه المسيرة لا ترى شيئاً إلا ما يدور في داخلك من جيشان غامض موار، مثل موج البحر الذي أنت تتجنب النظر إليه، يطفو على ثبجه المُسْوَدّ وجهها الضحوك والشعر الضارب إلى شُقرة كستنائية مهوّش متناثر تضربه أهواء القلب الحسير.

وقد وصلت الآن إلى مبتغاك.

عبرت من أمام ساحة السلسلة التي يقع في آخرها، على الحافة، معسكر بريطانيّ صغير، أقيم فيه مدفع ضخم مصوّب إلى قلب البحر.

أنتَ لا تبالي به ولا بثكنة الإنجليز.

أنتَ بعد خطوات قلائل تنزل السلّم العالي، تهبط من رصيف الكورنيش المسوّر بسور حديديّ قضبانه المستديرة صدئة قليلاً ومنداة.

السلالم زلقة عليها طحالب رطبة داكنة الخضرة، غنيّة وفيها شراسه كامنة. والرمل تحت السلسلة طريّ داكن بالبلل. يضرب الموج

الشطّ المغطي بأكوامٍ من الطحالب كثيفةً لزجة محتشـــدة بلحمـــها قـــاتم الخضرة. الليل معتم، وحتى أنوار الكورنيش مدهونة بالأزرق تحســـباً لغارات الطلاينة والألمان التي لم تكن الآن تعنيك كثيراً.

ألم تتقدم بحذائك الذي ثقل فجأة بالرمل النديّ العالق بنعله وتصعـد ببطء كومة الطحالب غادرة الشكل؟

هأنت تواجه الشاطئ الآخر.

مازال عزمك معقوداً بتصميم اليأس الأخير على أن تلقي بنفســك إلى الموج الثائر كما أنت، بكامل ما عليك وما فيك، الماء الثقيل يرتطـم بالشط وترتفع له رغوة مزبدة بصوت اصطدام متواتر كضربات قنـــابل ضخمة، أو قصف مدافع مليئة الصدر، لا تجد فيه رهبة بل ترحيباً.

هل أنت الآن بين أذرع الموج الملتطم الضـــارب بســواد عبابـــه وعنف طحالبه متراوحة الحركة، بين صعود ســـــامق وهبــوط غـــائر سحيق؟

أم أن ذلك كله كان فقط داخلك؟

كيف وجدت نفسك في غرفتك الدافئة التي يتسلل الهواء البارد مـن تحت خصاص شرفتها، تحتضن التنين الصغير، بحنوّ، تحـــدب عليـــه وتغذوه بدماء قلبك غير المسفوحة هدراً؟

هل كتبت عندئذ في يومياتك: "لا شئ، انتهت المهزلة (أو المأساة؟) إلى لا شئ. لم يتغير شئ ولم يحدث شئ، عُدتُ إلى دوّامتـــي المألوفـــة

أخبط بقدميّ بين قبور أحلامي الميّتة التي ترفض الموت فتبعث من جديد بعث الشياطين تتراقص في الظلمة ممسكة بأذرع أحدها الآخر: مسوخ "ماتيس" الهادئة تلتف بي فأضحك لها، وعليها، ضحكاً لا يقل سُخْراً عن استهزائها، ولا يقل شوْهاً عن عَوَارها".

في هذا الموقع بالذات - تقوم الآن البيبليوتيكا ألكسندرينا، مهيبة وغريبة ومصقولة حداثية جداً، وقد رُوّضت السلسلة، وأقيم على مدخلها سور صغير، واقتطعها الجيش - أو البحرية - لبناء منشآت غامضة حيث كان ثَمْ كازّينو لرمي الحمام - أو الأطباق - كنا نسميه التيرو، ثم جاء المقاولون العرب فوسّعوا الكورنيش أمام "المكتبة الاسكندرانية" ورموا على الرمل كتلاً مرصوصة مسطحة من الأسمنت سرعان ما تراكمت عليها وحولها أنواع من النفايات والمهملات، أوراق ملونة وأغلفة وأكياس الشيبسي وعلب عصائر باهتة مطبقة وشظايا خشب رماه البحر وجففته الشمس وشرائح مشرشرة من البلاستيك المعووج وغُطّيان زجاجات الكوكاكولا الصدئة وقبضات مهوّشة من قشٍ قديم مُصْفرّ وأحجار صغيرة متناثرة عليها طحلب أخضر قذر نيّئ الشكل وأزواج من العشاق الغلابة يلوذون بغرامهم إلى الشاطئ الحجريّ الصلد أمام أمواج البحر التي تخبطه بنوع من الاستسلام، أو الموادعة، أين ذهب عنف اليمّ هنا، وضرباته القاصفة وأمواجه الهادرة العالية الغاضبة؟

في هذا الموقع بالذات تآكل النحت الجيريّ الهشّ ليوروبا وزيوس عاشقها الذي اتخذ هيئة الثور، وخطفها إلى كريت، سقطت قشور من التمثال الرقيق وتعرى لحمه الخشن الرماديّ وضاعت أوصالٌ من الثور ومن المرأة معاً، أما زمان، فقد كانت هذه الساحة بريئة خاوية بكراً تملؤها أوهام أقوى على الزمن وأصلب عوداً، لا تتآكل ولا تتهاوى، أوهام معاشق قديمة وباقية، أهواءٌ لها مضاربها التي لا سقوط لها.

ألهذا أنت تعود إلى اصطدامك الأول بحبّك الأوّل الخائب الذي يسمى عادة "حباً عذرياً"، وهو غير صحيح، لأنه في جانب منه على الأقل حبٌ حسيّ الحُلم، قويّ الجسدانية أو يُسمّى حباً مراهقاً من طرف واحد وهو صحيح.

هل كان ذلك بالأمس فقط، هذا الصباح أم من ستين عاماً، عندما دخلتَ، أنتَ، مدرّج الكلية على ربوة العباسية في محرم بك، والقاعة مزدحمة تموج بلغط طلبة الحقوق الجدد، ومرحهم، قبل أن يصل الشيخ أبو زهرة، أستاذ الشريعة، وهل كان ذلك عندما وقع بصرك عليها – أنت الآن تراها – في الصف الأول، جميلة، ممشوقة، يتموج شعرها الكستنائي الفاتح على بشرة صافية مُشعة ونورانية وعينين متوقدتين بذكاءٍ وحيوية خارقة.

عندئذ عرفت لأول مرة صاعقة العشق.

ضربتك هذه الصاعقة، بعد ذلك، مرة، واحدةً ودائمة.

هل هذه الرومانتيكية يمكن أن تحدث الآن (ليس لك، فهي تحـــدث) وإنما لرصفائك في السادسة عشرة، على بدايات هـــذا القــرن الواحـــد والعشرين؟ هل هي باقية أبداً أم عفت عليها الأيام؟

أنت لم تر هذه المحبوبة الأولى حقاً، ولعلك لم تكن تريد أن تراها، منذ أكثر من ستين عاماً.

مازالت، وستظل أبدا، رائعة الجمال، نضرة في تلك الروعة التـــي تقع بين الصبا والشباب، كأنها من غير هذه الأرض، أليســـت حبيبتـــك دائما هي من تراب الأرض ومن خارج فلكها في الوقت نفسه؟

مازالت، تماما كما وقعت عليها نظرتك الأولى، رقراقة بماء شباب لا يغيض، فائقة الكل، حتى لو أصبحت محامية مشهورة مرموقة فـــــي الإسكندرية وقنصلا فخريا لإحدى بلاد أمريكـــا اللاتينيـــة، فـــنزويلا أم بوليفيا؟

هل أنت الآن، وهي معا - حقا - تعديتما الســـبعين مـــن العمـــر بكثير، أم لعلكما، معا تخطوان إلى السابعة عشر؟

وعندما هاجك الشوق - بدون مبرر - أرسلت لها بـــالبريد علـــى عنوانها بالإسكندرية شارع كنيسة دبانـــة، صـــورة لـــها نشـــرت فـــي "المصور" احتفظت أنت بها طول هذه السنين، مع صفحـــة مـــن هـــذه اليوميات، مطبوعة ومنشورة وممهورة باسمك في إحـــدى المجـــلات،

وبالطبع لم تتلق أي نوع من الرد، فقد كانت - وأنت لا تعرف - تعالج في فرنسا من مرض عضال ما لبث أن قضى عليها. وعندما جاءك الخبر أنها ماتت طفرت من عينيك دمعة لم تملك أن تحبسها.

هل انقضى ذلك كله؟

سوف تفتتح جامعة فاروق الأول رسميا، بعد أسابيع، ويأتي "جلالة الملك الصالح" وقد أطلق لحية خفيفة فقد راجت مزاعم أن جلالته من الأشراف نسل الرسول، والعميد طه حسين سيلقي كلمة عصماء من كلماته المأثورة، بصوته الرخيم وإلقائه المتأني المعني به. فلماذا كنت تشهد الحفل المزدحم في سرادق كبير أقيم في فناء ربوة العباسية الثانوية بمحرم بك، وفي الصفوف الأولى الوزراء والنبلاء والكبراء، وأنت من غير طربوش، من غير كرافتة، مفتوح القميص، باسما وساخرا ومستهترا، معلقا متشبثا بعمود من أعمدة السرادق، قدمك قلقة متأرجحة على ظهر كرسي أحد زملائك؟ ألم يكن ثمة مكان على الإطلاق تجلس فيه؟ أم أنك بشكل ما كنت تريد أن تعلن تمردك ويأسك من كل المواضعات الاجتماعية بما فيها حضور جلالة الملك ووزرائه ومعالي الباشا العميد مستشار المعارف العمومية؟

هل تتساءل هل يمكن أن يقف زميلك وقرينك الآن، بعد نصف قرن، في محضر رئيس الجمهورية ووزير التعليم العالي ورئيس الجامعة، مثل هذا الموقف.

بعد ذلك بسنتين أو ثلاثة، كما تعرف، سوف تلقي بنفسك في غمار الحركة الثورية بالإسكندرية، مناضلا بما في يدك من وسائل، ضد الاحتلال العسكري الأجنبي، وضد قهر الرأسمالية وعتوها، تكتب وتطبع وتوزع المنشورات، تنظم المظاهرات والإضرابات والخلايا السرية، تدرس وتترجم الكتابات الثورية.

فهل أنت، على نحو ما، تواصل تلك المسيرة، بالأمل في قلب اليأس؟

أتيك الساحل الشمالي

٢٤ يوليو ٢٠٠١

النحّات والصحفية

الجوّ متّقد، ولافح الهواء مع أننا كنا في أواخر يناير.

الساحة الفسيحة أمام الفندق تهب عليها نسمات جافة وتتردد فيـــها دقات الأزاميل الصلبة على الجرانيت وأزيـــر آلات الحفْــر والصقــل الكهربائية يختلط بنداءات العمال الأشداء وقد تسنموا أعلى منحوتات لــم تكتمل بعد تركها الفنانون لهم يشقون الصوان ويسوّونه وفقـــاً لخطــط وتصميمات في أذهان الفنانين قد انتقلت إلى الحرفييّـــن الذيـــن ورثـــوا عبقرية أسلافهم الفراعنة، فيما يبدو، عبر لغةٍ مفرداتها النظرة والإشارة واللماحية وكلمتين ثلاثة، أيهم الصُنّاع الحقيقيّون: أصحــــاب الفكـــرة أم أصحاب الفعل؟

الفنانون تناثروا على الساحة، كل منهم معــــه إزميلـــه وحفارتـــه الكهربائية، وقد اختار زاوية تتسق مع رؤيته الداخلية للمشهد المصـــري الأفريقي المتوهج بحرارة وضيئة خاصة.

النحّات الياباني منكب على ما يشبه بوابة معبد بوذي من الجرانيت العصيّ طوّعه لرؤية أملتها شمس محرقة وصخور ناتئة من المياه والأرض الخضراء كأنما هي من صنع آلهة قدامى.

الفرنسي قصير القامة لامع العينين خفيف الجسم ترك لحيته الشهباء تطول وشاربه يتهدل على فمه الشهواني، أطلق عليه الصعايدة اسم "شنبو" فرضى بهذا الاسم وتبناه عن طيب خاطر وأصبح يعرف نفسه باسم شنبو، يصوغ كتلا تجريدية من الجرانيت لها قواعد مدببة مخروطية أو هرمية على نحو ما، يركبها على قواعد من منحوتات أخرى في توازن حرج دقيق، لا تنهار ولا تتهاوى ولكنها بمجرد أن تمسها تتحرك حركة إيقاعية كأنها نغمات موسيقية غير مسموعة لكنها مرئية مجسمة.

النحاتون المصريون الشبان يحتضنون أحجار الصوان يعيدون تشكيلها وفق رؤى غامضة يجلوها الإزميل وآلات القطع الكهربائية حادة الأسنان الدوارة من تجسيدات لأوهام حجرية مسننة تضرب إلى دكنة قاتمة أو تتخلل خطوطا معدنية مستقيمة تحيط بأجسام صخرية كأنها تتصاعد إلى السماء دون مادة، أو ما يوحي بأنه بيضة التخلق الأولى منذ أزمان سحيقة، هائلة الأبعاد، حاملة للأسرار، أو تركيبات موسيقية فيها نزق يترجمه الجرانيت بخفة نغم راقص. منهم من أقام من

الرخام تصوراً لإيزيس من غير وجه وبألف جناح تضمّ العالمين السماوات والأرضين.

النحات اللبنانيّ أقام تمثالاً سامقاً يوحي، على نحوٍ ما، بالعذراء تحمل مسيحاً طفلاً منصهراً في داخل جسمها الممشوق الصاعد مستدقاً نحو وجهها الذي بدت أساريره ناعمة وادعة دون تحديد في العلوّ الشاهق.

في آخر الساحة التي تطل على منحدر صخري تبدو البلد تحته بعيدة متضامّة وفي وسطها تبرق مياه حابي بين الجنادل الغارقة والجزر الطبيعية المونقة التي استحالت إلى فنادق خمس نجوم تؤمها أفواج من السيّاح بحثاً عن سحر مُنَمَّط مُباع سلعاً لشركات التسويق.

اختار إدريس موقع عمله هنا في الساحة، بجانب زَرْعة صبار هائلة الارتفاع، نَحْتٌ نباتيّ سامق، ملفوف الجسد على شحنته المكنونة من العصارة الجنسية الكثيفة، مدوّر منتصب بما يكاد يكون بذاءة مكشوفة تحت السماء المحرقة، ليس له إلا ظلّ طويل كأن فيه – هو أيضاً – حياةً خفيّة شريرة، وفي عزّ الظهر يهبّ شامخاً، وحيداً، رافضاً لكل شئ إلا قيامه الخاص ووجوده الصلب الذي لا يبالي بشيء آخر.

كان قد وضع على عينيه الحادتين نظارة محكمة تحميهما من شظايا الجرانيت الدقيقة وذرورها المتطاير، كأنه إبَر غير مرئية تقريباً،

وهو يسوي التمثال ويصقله بالآلة الكهربائية التي تطــنّ وتــئز أزيــراً شرساً إذ تصقل السطح الأشعث وتحيله ناعم الملمس شهوياً.

كان النحات الألماني ينهي عمله في كتلة صماء سامقة حفر فيـــها مكعَّباً غائراً في قلب الصرح، هندسياً، معقلناً، صارم الفلسفة.

ثار غبار الربوة المرتفعة أمام الفندق تحت أقدام كثيرة ولغط كثير، عندما رفع إدريس عينيه عن المنحوتة السامقة كان الأطفال قد تحلقـــوا حواليه مُتنادين أولاً في صيحات الفرح والدهشة، تعالَ يا وله بُـــصّ .. اللاه .. اللاه .. مع ضحكات صغيرة يتهانفون بها ويكتمونـــها، بينمـا المدرس يضيع صوته في الضجة الصبيانية، بس يا وَله.. اسكتْ واتعلّم من سكات أنتَ وهوّه من غير ازعاج، من غير دوشة.. إبعدْ شويه عــن الفنان.

التمت حلقة صغيرة – واضح أنها من أكثر الأولاد شقاوة وتفَــزُّزاً وجرأة – حول النحات الفرنسي وبدأوا أغنية جماعيـــة مـــع التصفيــق الموقع الرتيب بالأيدي: شَنَبو ..! شَنَبو ..! وكأنما بقدرة قادر تكونـــــت منهم دائرة متماسكة بالأيدي – كانوا قد اســـقطوا حقائبـــهم المدرســية الغاصّة المتخمة على الأرض في كومات مهوشة متنـــاثرة – وراحـــوا يدورون حول النحات الذي ابتسم لهم ثم ما لبث أن انضـــم إليـــهم فـــي الرقصة المرتجلة وهو يتغنى معهم: شَنَبو .. شَنَبو ..

تسارعت نغمة الأغنية ودوران الحلقة وقد أسقط في يد المدرس، مادام النحات الخواجا نفسه قد دخل اللعبة مع الأولاد. وفجأة انكسرت الحلقة وصمتت الأغنية وتصاعدت صرخات الأولاد: يسري .. يسري.. الحجوا الواد .. أستاذ .. الواد يسري حسنين وجع من على حرف الصخَر ..

الصبي كان قد انزلقت رجله من على حافة الربوة ووجد نفسه – دون أن يدرك تماماً ما الذي حدث له – وقد تعلق بكلتا يديه بحرف الربوة الصخري، وثبت قدميه بنتوء في الربوة في عناد الاستماتة. هذا التشبث اللاواعي بالحياة ضَمن له ألا يهوى من حالق إلى أرض الوادي البعيدة تحته، جَمَد الولد في وقفته بعد أن تأرجح قليلاً، مازال رأسه أعلى من حافة الربوة وعيناه مفتوحتان في تحديق دهشةٍ متصلة صامتة وقد أخذت يداه ترسلان إليه نبضات وجع متقطعة متواترة ولكن الأصابع الخشنة القوية – وقد اعتادت نقاوة الدودة وتقليع الحلفا من الأرض ونزع الملوخية والسريس من بين أعواد الذرة – مازالت قادرة على التشبث بالحجر ومازالت ساقاه في الشورت المترب كالح اللون قادرتين على الثبات في موقعهما من النتوء الحجري المنقِذ وإن كان ثقل جسمه قد بدأ ينوء بهما ويتهدده بالسقوط.

ليلى اندفعت إلى حافة الربوة مع الأولاد، لكنـــــها مــع مدرســهم جاهدت أن تردهم إلى الخلف قليلاً حتى يبتعدوا عن مواطن الخطــر ولا يسقط أحد منهم مع يسري.

لم تكد تصدق عينيها وهي ترى إدريس بقامته الطويلــــة وجســده النحيل الفارع ينحني بتمكُّن ومعرفة، يقع على ركبتيه ويثبت قدميه فـــي الأرض، وبيدين محنكّتين حريصتين وجسورتين معا يمسك بيدي الولـــد الذي تأرجح فجأة في الهواء وبحركة قوية يرفع الجسم المتأرجح إلـــى أعلى ويرمي به إلى جنب على سطح الربوة، رمية واسعة المدى، ألقـت بالولد تحت منحوتة الفنان الفرنسي الذي هتف دون أن يتحكم في هتفته: برافو .. برافو .. وبدوره رفع الولد الذي بدأ الدم يتقطر مـــن ركبتيــه المتسختين لكن دون أن يلحقه – فيما عدا ذلك – كبير أذى.

وطبعاً اندفع الفصل كله ناحية يسري الذي وقف مترنحـــــاً قليـــلاً وعلى وجهه داكن السمرة ابتسامة غير واعية، تحلقوا حوله: حمد الله ع السلامة..! تعْيش وتَخِد غيرها يا بويْ .. نفطّ ع تحت يا واد عتجيـــــب الديب من ديله عاد.

نُسِي إدريس. وهو ينهض واقفاً بشئ من الجهد ويمشي ببطء نحــو تمثاله، وفي صدر ليلى مشاعر متضاربة من الإعجاب والدهشـــة ومـــا يشبه الرهبة أمام ما تصورته ساعتها عملاً من أعمـــال الرجولـــة بــل

البطولة والتضحية. لاشك أنه كان فيه هذا النوع من المقدرة على الإيثار والمخاطرة بالنفس في سياق أسمَى من النفس، ولكن فيه أيضاً نوع من إثبات الذات، بل ربما المباهاة والاستعراض، نوع من النرجسية المقلوبة على وجهها الآخر، مندفعة إلى الخارج لكنها في النهاية تصبّ في الداخل.

كانت ليلى تنظر حواليها، اتجهت إلى إدريس الذي كان الجميع كأنما نسوه في غمرة الفرح بنجاة الولد:

- أستاذ إدريس .. أنا صحفية، أولاً أهنئك بهذا العمل العظيم، أنت أنقذت حياة الولد، المهم أنني معجبة بك، يعني بشغلك، وأتمنى لقاءً معك لأجري حواراً حول الفنّ والحياة ومعنى الفنّ عند حضرتك.

نظر إليها من وراء زجاج النظارة الداكن، عيناه تومضان، من الشمس أم من حريق داخليّ مفاجئ؟

إدريس طويل القامة هو نفسه صخريّ الوجه مع أنه "بحراوي" جاء أصلاً من تلا، منوفية، كان أبوه ملاحظ دريسة في سكك حديد مصر يقيم مرة كل سنتين، حسب التنقلات التي تفرضها عليه "المصلحة"، في أحد تلك المنازل الحجرية الواطئة التي تقع جنب القضبان، تحت الجسر العالي، لها شبابيك ضيقة، ربىّ فيها عائلة من سبع أولاد وبنت واحدة، وعلمهم جميعاً في المدارس والمعاهد والجامعات.

التحق إدريس بكلية الفنون الجميلة مع أن مجموعه في الثانوية العامة كان يؤهله لكلية من تلك التي تسمى كليات القمة، الهندسة مثلاً أو الصحافة والإعلام، ونجح بتفوق في اختبار القدرات الفنيّة إذ صاغ للجنة الممتحنين تمثالاً فرعونياً صغيراً من الصلصال، كان قد صاغه عشرات المرات، في صباه، وحتى في طفولته، من طين الأرض الرخراخ تحت حنفيات السكة الحديد التي كانت تموّن القاطرات بالمياه عبر خراطيم ضخمة سوداء مضلعة لها حلقات متينة دائماً تنزل منها قطرات منسابة من الماء حتى بعد أن تتدفق في دفعات مقتحمة مُرغّية ثم يُغلق أبوه الصنبور الضخم عن طريق خفض يدٍ حديدية مستطيلة لامعة أبداً بالندى.

إدريس الآن فنان مرموق راج عنه أنه "جدّد شباب النحت المصري" وابتدع أشكالاً غير مسبوقة وصوّر نماذج شعبية أصيلة بأسلوب يجمع بين البساطة الواضحة والدلالات الخاصة - كما كان يقال - وله الآن في هذا الملتقى الدوليّ مكانة المعلّم والأستاذ لا يفوقه في المكانة إلا المدير المقيم وهو الدينامو الفعلي للحدث السنويّ، يسيّر الأمور بصوته الهادئ ونظرته العميقة الحويطة وذكائه المكتوم ببراعة خبرةٍ عريقةٍ.

قبيل الحفل الختامي جاءت إلى الفندق وفود الصحفيين، سوف "يغطّون" الحدث (كأنه كان عارياً) ويمتدحون أو يهاجمون المسئولين

عنه وعلى رأسهم وزير الثقافة، وسوف يكتبون عن الرقصات والأغنيات العريقة ويصورون "الفولكلور الشعبي" ويستمتعون بالشمس الدافئة ووجبات الفندق الباذخة وبدل السفر السخيّ.

وما أقل مَنْ يقدّرون هذا الحدث أو يدركون أسرار الأعمال الفنية أو يعرفون كيف يكتبون عنها.

ليلى مِنْ هذه القلة، هي وناهد، وحسني.

سمراء داكنة السمرة، متوقدة العينين بسوادهما الحالك الغطيس، ليست وسيمة بأي معنى، ذقنها منحوت وعظام وجنتيها ناتئة وشعرها أكرت جَعْد صعب المراس، لكنها مع ذلك مسمسمة جذابة ولها إشعاع جنسيّ، جسمها نحيل ولكنه مدوّر الحَنْيات، ساقاها رفيعتان تنتهيان بأرداف غلامية ممصوصة ولكن نهديها كبيران مقتحمان وواضح أنهما من غير سوتيان متماسكان وتقريباً عُذريّان.

قالت لنا على العشاء، بمجرد أن وضعت حقائبها الزهيدة في غرفة الفندق، ونزلت مغسولة الشَعْر ونضرة الملامح:

- أموت وأشوف إدريس..

لم يكن إدريس فناناً ذائع الصيت فقط بل كان أيضاً رجلاً فيه فحولة وجشع جنسيّ شاعت عنه شهرة أنه ليس عنده أدنى وازع من المواضعات الأخلاقية "البرجوازية" الرخيصة، كما كان يقول.

صبيحة يوم الحفل الختامي لم تظهر ليلى.

لم تأت على الإفطار.

متَع النهار ولم تبدُ بادرةُ عليها.

قلقنا بالطبع وسألنا عنها، قالوا لم تترك غرفتها.

تطوع حسني بأن يصعد يسأل عنها، نهرته ناهد:

- إتلهي أنتَ خليك مطرحك. آدي اللي ناقص.

ذهبت ناهد إليها، بشهامةٍ معهودة، وجدتها مستلقية على سريرها المهوّش، الملاءات والمخدرات على الأرض، قالت لنا بعد إلحاح السؤال منا والتهديد بأننا كلنا سنذهب نرى ما الحكاية، إن ليلى قضت ليلة مؤرقة لم تنم، وإنها مريضة استفرغت على الفجر حتى لم يعد في جوفها قطرة، وفي حالة عصبية لا تطيق أحداً، منتفخة العينين، شاحبة الوجه حتى الموت، أرسلتْ في طلب أدوية ومهدئات من البلد، وبقيتْ معها حتى بعد موعد الغداء - لم تنزل ليلى تتغدّى لا هي ولا ناهد - حتى نامت قليلاً أو راحت على الأصح في غيبوبة من الإنهاك.

جاء الوزير والحاشية المعتادة والتليفزيون والإذاعة المحلية ودقت الطبول ورقصت الفرقة الفولكلورية، بنات وصبيان، على موسيقى أفريقية تحت أضواء حمراء وزرقاء، وفُرشت موائد البوفيه المفتوح العامرة بصنوف الأكل الافرنجي والبلدي والنوبيّ، السمك بالمايونيز والرومي المشوي، وبعدها أصناف الحلويات والفواكه نهياً مستباحاً

للمسئولين وللزوار والضيوف والمدعويين والأدعياء والفنانين والطفيليين والإعلاميين على حد سواء.

ولم تظهر ليلى.

صعدت إليها ناهد بقليل من الجبن وتفاحتين لكنها قالت لنا بعد نزولها إن ليلى لم تكد تتذوق لقمة أو حتى شريحة من تفاحة.

لم نعرف "حقيقة" ما حدث إلا بعد ذلك بكثير.

وهل ثم "حقيقةٌ" تُعرف أبداً؟

الحكاية وما فيها أن إدريس عزم على ليلى بكأس، ثم على العشاء الفاخر المخصوص في غرفته، بل طلب لها بكرمٍ غير مسبوق زجاجة شمبانيا، بحالها.

لم نصدّق، لكن ناهد حلفت لنا إنها عرفت من الجرسونات وتأكدت من فاتورة الفندق (التي دفعتها الوزارة).

قال إدريس لليلى إنه يحبها، ويموت في هواها، وإنها ألهمته تماثيل سوف تخلّدها، إنه سوف يطلق زوجته ويتزوجها بمجرد عودتهما للقاهرة، لم يعد يطيق لحظة فراق عنها، إنه كان ينتظرها لتنير حياته وتثري فنّه، إنها التمثال الحيّ الذي تتجسد فيه عبقرية الشعب، كان صوته حاراً متهدجاً – من الويسكي بعد الشمبانيا، أم من الحب؟ – وعيناه الغائرتان محجريهما تتألقان، قال كأنني الآن في ذروة توهج

صنُع الفن، وصنُع الحب، واحتضنها، وبشفتيه الساخنتين داس شفتيها، بينما كانت يده الخشنة المدرَبة على نحت الصوّان، طويلة الأصابع، كثيفتها، قوية الأشاجع، تبدآن في تحسس نهديها اللذين نفرت حلمتاهما. ذابت بين أحضانه.

العهدة على الراوي أنه بعد أن شبع منها، وقضى مآربه، قلّبها كما يقلب قطعة من الحجر، ثم أسقطها بخشونة ولا مبالاة.

قالت ليلى: سنسافر غداً معاً، لن نترك أحدنا الآخر لحظة. أنا لك وأنت لي، إلى الأبد.

ضحك إدريس ضحكة قاسية، وقال لها:

- إنتِ صدّقتِ كلام الحب الحلو؟ مش بيقولوا يطلع عليه النهار يسيح؟ يا بنتي ده كله مدهون بزبدة؟ كنت فاكرك خبيرة ومِتودكّة بالحكايات دي.

وطبعاً بهتت ليلى، صحيح أنها لم تكن خاماً ولا بنت البارحة، لكنها لم تصدق ما يحدث لها.

قال لها بنذالة: امشي روحي على أودتك يا شاطرة، مش عايز أشوف وشّك. أنت فاكراني أهبل والا بريالة؟ حتعمليهم عليّ؟ يالا ورّيني عرض كتافِك. أهي ليلة، إنتِ انبسطت وأنا خدت اللي أنا عايزة منك، وخلاص، بَحّ يا حلوة .. خلاص، توته توته فرغت الحدوته، إمشي يالا أنا عايز أنام ورايا شغل بكره ..

العهدة على الراوي إن ليلى لم تعرف كيف وصلت إلى غرفتها، دخلت تحت الدوش وهي تنشج ببكاءٍ ممزّق، وجدت نفسها تتقيأ كأنها تلفظ آخر أحشائها.

ناهد عيناها تتوهجان بخضرة مشتعلة وهي تحكي عن ليلة عيد ميلاد ليلى، بعد أن انتهت حكايتها مع إدريس أو هكذا تصورنا بأيام قلائل، ناهد ترشف حسوة بصوتٍ شفط ضعيف رقيق واهن من كوب الشاي الثقيل، كما هو متوقع. ناهد عندما تريد أن تثبت لنا، بشكل قاطع، أنها مثقفة وأرستقراطية النزعة وماركسية الهوى في الوقت نفسه، لا تشرب الشاي من الفنجان المذهب الذي تحرص ألا يُضمخ الروج الفاقع من شفتيها اللحميتين حافته الذهبية. كانت تأمر شغالتها بصوت عذب ومتنازل متحبِّب، أن تأتي لها بالشاي في الكوب الزجاجي – مضلع الزجاج غالي المظهر مع ذلك – كما يشربه "الناس العاديون" – يعني أهل الحواري الشعبية ومرتادي المقاهي الشعبية:

ناهد تحكي:

"أنا أيضاً كنت مدعوة لتلك الحفلة، مع الشلة كلها: حسني وسناء وبقية أصحابنا.

شقة ليلى في المعادي، تطل من ناحية الشرفة العريضة على خضرة مترامية تبدو بالليل داكنة تنزع من بينها أجماتٌ قليلة متراكبة

من نخل سامق تتعلق بجذوره الفارعة فسائل نخل وليد قصـــير القامـــة كثيف السعف، ومن وراء الستائر الشفافة المتهدلة على زجـــاج النـــافذة الجنوبية تتخايل امتدادات صحراوية تقطعها كتل متضامة مصمتة مـــن بيوت أنصاف الفلاحين، أنصاف البدو.

ليلى ممشوقة القوام، أمْيَل إلى النحافة، يلف جسمها الرشيق المتسق فستان أسود يحدد قسمات الجسد الناعم الصلب بطريقة خاصة بها، تبدو ساحرة، بأكثر من معنى، لا يخفف من السواد المنساب على هذا الجســد الممسود إلا بريق بروشْ ذهبية، وهّاج على صدرهـــا الأيســـر، يبـــدو مدوّراً محبوكاً، فوق القلب مباشرة، أو هكذا يتصور الواحد.

كانت أم كلثوم تتدفق – على الموسيقى القديمة الرتيبة:

كانت الأيام في قلبي دموع بتجري وأنت تحلى لك دموعي.

كانت الحفلة قد شارفت ذروتها، تلك أكثر اللحظات إمتاعاً، اللحظة التي تأتي مباشرة قبيل الذروة، لعلها أمتع وأكثر إرواءً من لحظة الذروة نفسها، عندما دق جرس الباب بإصرار وإلحاح متصل، جعلنـــا جميعـــاً نتوقف لبرهة خاطفة عما كنا بسبيله من أكل وحديث وغـــزل بـــرئ أو غير برئ، وننظر إلى الباب بترقب.

دخل إدريس، بقامته الشـــامخة، ووجهـــه الصخـــري المنحـــوت، وخطوته الوئيدة يحمل شيئاً ملفوفاً فـــي ورق أصفـــر خشـــن مربـــوط

بدوبارة، يبدو كأنه هدية عيد ميلاد، ولكنه، كما ينتظر من إدريس، غير مغلّف بالورق اللامع المنقوش بزخرفات زاهية.

لم يلق سلاماً ولا كلاماً. بل ذهب مباشرة إلى ليلى، ومن غير كلمة، مزّق الورق الأصفر الكابي عن هديته، وكشف عنها.

كانت ليلى التمثال الصغير تنظر إلينا، رائعة صحيح، وفاتنة، عارية. جسدها من الحجر البنّي المحروق، في نحوله الرشيق، مدملج الحنيات، مدوّر القسمات، مضطجعاً براحته، يكشف لنا دون أدنى خجل، وربما بشيءٍ من الزهو المكتوم عن كنوزه الأنثوية مرهفة الجوانب، ليلى في المنحوتة التي صاغها إدريس بحبٍ وبصيرة – تبدو قادرةً على تملك حريتها، على تملُّك جسدها الحرّ الذي لا يدين بشيءٍ ولا بأحد غير ذاته، جسدها الأنثوي، في دقته وصلابته ونعومته الخفية معاً، ليس مِلكاً لأحد ولا حتى لصاحب المنحوتة، ليس مِلكاً إلا لذاته – وربما للذاته – ولكن من غير مباهاة ولا إدعاء، بل ببساطة وجوده، بمجرد أنه جسد عارٍ من كل زيف ومن كل التباس.

كيف استطاع الفنان – وهو الذي بلا أخلاق ولا تورُّع – أن يعرفها بتلك المعرفة التي لا يصل إليها إلا الفنّ؟ كأن الفن يتجاوز الإنسان ولا يعيره أدنى قيمة، كأن الفن وحده – من غير الإنسان – هو القيمة الوحيدة.

خطر لي عندما بهرتني تلك الرؤية: هل حوشية الفن تَنْفِي وحشية السلوك؟ هل عُري الصدق الفني يمحو سفالة العُري الخلقيّ؟

سقط علينا – كلنا – صمت كامل، أمام فجأة الصدمة.

لم يقل إدريس ولا كلمة.

حتى لم يقل لها: كل سنة وأنتِ طيبة.

فقد كان يقدم لها المنحوتة، كأنه يقدم قرباناً أو ذبيحة على هيكل، ومعذرة للتشبيه الكلاسيكي، لكنه كان الشئ الوحيد الذي يمكن أن يصوّر تلك اللحظة الهاربة الغريبة، كأن الفنان هنا يقتل الرجل، الرجل السافل لم يعد موجوداً، قد أسقطه الفنان.

نحن الشلّة اللصيقة التي نعرف ليلى، وقد سمعنا وعرفنا حكايتها، قد أصابنا الشلل لحظة فلم نعرف أن نفرّق بين الرجل النذل وبين الفنان.

ليلى أسقطت المنحوتة، برفق، على الأرض، واقتربت من إدريس وقبّلته، على فمه، أمامنا جميعاً، دون تورّع، كأنما قد نسيت أو غفرت أو أسقطت من الوجود مهانتها وسفالته. سألت نفسي مرة أخرى. حوشيّة الفن تغفر – أو تسقِط – وحشية الرجل؟

نحن لم نصفق ولم نهتف، ولم نقف حولها. تركناهما، وحدهما، في لحظة خاصة بهما وحدهما. ليلى كانت بهذه القبلة العلنية أمام صورتها المنحوتة، تعلن معنىً من الانتقام لم نكن نحن ندركه تمام الإدراك،

وتعلن في الوقت نفسه نوعاً من الأنانية - أو فلنقل تأكيد الذات بإزاء محاولةٍ ذكورية فجة - بطريركية عتيقة - لمحو إنسانية أنثويّتها، ونديّتها، وعنفوان وجودها.

بدا أن ليلى كانت تجتاحها نوبة خفية من جنونٍ خاص بها، وكأنما في هذه السوْرة تثبت نفسها أو تبرهن بذاتها على ذاتها.
ليلى نجحت في إلغاء الرجل بأن كرّمت الفنان.

لم يكن في هذه القبلة حنان أو إمتنان، بل كانت عملاً قاسياً، صلباً، إعلاناً عن سيادةٍ "ماترياركية" للمرأة، عن سطوة قبلةٍ ليس فيها أدنى هبوة من الشبقية بل كأن فيها نفياً قاطعاً للايروسية.

سناء هي التي ألقت ضوءاً مفاجئاً على هذه المعاني بأن ضحكت، ضحكة مبحوحة، مستمتعة، خافتة ولكنها في الهدوء المفاجئ الذي أعقب قبلة ليلى كان لها صدى تردده الجدران وينفذ من الشرفة والنافذة العريضة إلى العالم الخارجي، كأنه صدى يومٍ أخير.

سناء تضحك وهي تهز رأسها فيتطوح شعرها الأملس الأسيل حول وجهها المدوّر، فتقول لنا - من غير كلام - إنها وهي تلميذة إدريس تمقت ذكورته، وتُسقط موهبته الحوشية.

بذلك بلغت الحفلة ذروتها - ما أندر ما تبلغ الواحدة منا إلى ذروتها! - وابتدأ عقد المدعوين والمدعوات ينفرط، وفي حميا التسليم والتوديع والتقبيل أحسست أن إدريس قد توارى، وهو الذي يتأكد

حضوره السامق في كل مكان، وعندما رحت أدير عينيّ في الصالة التي بدت الآن فسيحة واسعة والموائد المتناثرة فيها خالية وكأنما لا ضرورة لها وجدتُه في ركن أمام المائدة التي صُفّت عليها الزجاجات، بمحتوياتها الصهباء، نصف فارغة، وملآنة، وكان يصب لنفسه كأساً أخرى واضح أنها جاءت بعد كؤوس كثيرة، وكان في عينيه زيغ.

انفض السامر، وجدتُ أنني آخر من يتهيأ للنزول، أنا وإدريس الذي بدا أنه فقد توازنه، وثقلت كلماته.

كنت قد جئت في تاكسي، سيارتي كانت في الورشة لإصلاح الديبرياج، ولم أكن أعرف هل أستطيع أن أجد مواصلة في آخر الليل – أول الفجر – من الهرم إلى بيتي في المهندسين؟

وللمرة الثانية، وبمبادرة غير مفهومة، قالت ليلى: لا بأس، أوصلكم للدقي، إنتِ وإدريس.

نزلنا سلالم بيتها، إدريس يتشبث بالدرابزين، ويستند إلى الحائط، ويتعثر وهو يتلمس موطئ قدميه في الدَرَج المظلم، حتى نسبقه ونجد زرار المصباح الكهربائي ونضغط – أنا وليلى – فينبثق النور على الهوّة المتحدرة بين الشقق المقفلة والحيطان الصامتة. هوّة متحضرة، أنيقة، ولكنها منذرة، هل أنها تختلف أساساً عن الهوة الساقطة إلى جحيم هاديس الموّار بالظلمات؟

كانت سيارة ليلى أمام الباب، اتخذت جلستي بجانبها وانزلق إدريس - بكل طوله وجسامته - إلى المقعد الخلفي، ارتمى عليه، منبطحا، وضع رأسه بجانب الباب، وتدلت ساقاه إلى جانب الباب الآخر.

السيارة تشق طريق المحور الفسيح الخاوي تقريبا، ثم تدخل شوارع القاهرة النائمة التي تومض فيها ثم تختفي أنوار المحلات والبيوت المقفلة على بضائعها وأسرارها.

واصلت ناهد حكايتها، ببطء وتأمل:

عندما وصلت بيتي كان إدريس يغط في نوم قلق يند عنه أصوات خافتة بين الغطيط والأنين، رأسه منحدر مقلوب على جانب المقعد الخلفي للسيارة، وساقاه مازالتا متدليتين من الجانب الآخر، والرائحة النفاذة تملأ السيارة حتى بعد أن فتحنا كل نوافذها على هواء الليل الرطب.

قالت لي ليلى: تصبحي على خير، أشكرك لأنك تفهمت الوضع كله، وتقبلته.

وضعت خدها على خدي في صورة قبلة أخوية لها صوت لين بالمصمصة والطرقعة.

وأخذت إدريس النائم إلى بيت زوجته وأولاده.

قالت لي أنها سلمته للبواب الذي صعد به إلى شقته بصعوبة، كأنما يودعه المخبأ الأمين.

رأيت سيارتها تبتعد، الأشجار الضخمة الجسيمة الفارعة كثيفة تصعد إلى سماء الفجر البريئة تنتهك نعومتها."

من ناحيته واصل إدريس النحات العظيم النذل حياته وأمجاده.

أما ليلى فلعلها لم تبرأ قط.

تزوجت ليلى للمرة الثانية أو الثالثة ربما، من رجل أعمال له سمعة مستطيرة في البيزنس، قيل إنه صنع ثروته الطائلة من قروض البنك وتجارة السلاح.

وفي ساعة صفاء حكى لي حسني إنها دعته - بعد هذه الحكاية كلها بزمن - على كأس في شقتها في المعادي. قالت له: "بكرة أجازة ٦ أكتوبر. تعال اشرب معي فنجان قهوة" وكأن فنجان القهوة سيم أو شفرة.

قال لي إنه لم يكن قد لاحظ من قبل، وخاصة ليلتها في حفلة عيد ميلادها، أن شقتها كانت فاخرة الأثاث - طبعاً - هادئة. عندما فتحت له كانت الشقة فيها موسيقى كلاسيكية خافتة لم يعرف مصدرها، وكانت على الجدران عدة لوحات لها، منها لوحة عارية بجوار لوحة كاسية، على غرار لوحتيْ جويا الشهيرتين، وعلى مائدة رخامية رأى منحوتة

إدريس: ليلى مضطجعة في إهابها الحجري الطوبي المحروق في وهــج إيروسيّ يكاد يصل إلى نشوة صوفية.

قال جلسنا في الأنتريه الواسع حسن الذوق، نور الضحى العـــــالي مريح، فرغنا من شرب القهوة، وبعدها الكأس الأولى، مع أننا كنا فـــــي الظهر تقريباً. صعدت إلى رأسي نكهة النشوة الخفيفة من حميّا الصهباء في دمي ومن تشعّع الأنثوية المزدوجة، حيةً في الجسد اللدن الذي يغلّف صلابة صخرية، وفي المنحوتة المضطجعة بغواية مكتومة.

قال: عندما امتدت ذراعي تحيط بخصرها الرفيع لم تُبْـــدِ علامــة ممانعة، ولم تُظهر أيضاً علامة رضى، تركت نفسها لي وأنا أنزل بيدي قليلاً إلى الأرداف قليلة الدسم.

كان التليفزيون في غرفة النوم المجاورة للأنتريه مفتوحاً ومنخفض الصوت، والمعلّق يذيع باللهجة الحماسية المعتادة وصف الحفل وتتـــابع القوات العسكرية أمام المنصة، وصلني من بعيد، حسني قـــال: ترديــده الممل إلى حد ما لطرازات الدبابات والصواريـــــخ، وصـــوت تحليـــق الطائرات.

انقطع الإرسال فجأة، سمعنا أصواتاً غير واضحة، غريبة.

قامت ليلى فجأة من جانبي، وقفـــتُ وقبّلتـــها بســـرعة علـــى شــفتيها المفتوحتين لكنها تركتني مسرعة ودخلت إلى غرفة النـــــوم، وتـــرددت

لحظة هل أدخل وراءها؟ أم ماذا أفعل؟ فتحتُ الراديو وأخذت تقلب في المحطات، ثم سمعتها تتحدث في التليفون.

أقبلت عليّ شاحبة الوجه جداً:

– الريّس أصيب، ضربوه بالرصاص، نقلوه للمستشفى، إذاعة لندن قالت إنه قُتل.

قال حسني:

– تصورت بسرعة خاطفة ما يمكن أن يحدث.

الدبابات تنزل الشوارع. ميليشيات الجماعات والإخوان في أيديها المدافع الرشاشة والقنابل اليدوية. مظاهرات تصطدم ببعضها بعضاً، اليساريون – أو ما بقى من فلولهم – يستميتون في مقاومة لا جدوى منها، المظاهرات يقمعها البوليس وربما الجيش بلا رحمة، الطيارات تنقضّ وترشّ الجموع بالرصاص، بيانات متضاربة من الإذاعة ضد بيانات أخرى من التليفزيون، حَظْر التجوال، إعلان الأحكام العرفية، خلت الشوارع من الناس، أخبار عن سقوط مدن الصعيد في أيدي المتمردين، معارك من بيت إلى بيت ومن وراء متاريس أقيمت فجأة من أحجار الرصيف، وقد لا أستطيع الخروج من عند ليلى، هل أقضي بقية النهار وهذه الليلة في بيتها هنا؟ ماذا أفعل؟

قبّلتها على خدها – قال – بلهوجة دون أن أفكر تماماً كأنني قد قررت شيئاً، بينما أنا لم أقرر ولا حاجة.

تركتها في حالٍ من الصدمة، كأنما للمرة الثانية - أو الألف - هجرها السَنَد والموئل وتركها لمصير غير معروف.

لم يكن غريباً - جداً - أن أذكر النحّات الشهير إدريس يعقوب التلاوي.

لم تحاول هي أن تستبقيني. كان الموقف كله مفاجئاً غير محسوب العاقبة. ونزلت جرياً وقلبي واجف. المدينة بدت لي خائفة وخاوية.

ماذا كان يمكن أن يتمّ تمامه، يومها، بين جسدين متعطشين للعشق؟

قال: يعني لم يضربوه إلا يومها، وساعتها بالضبط، حظّ نكد. على رأي المثل البلدي: جات الحزينة تفرح مالقتش مطرح.

قال: مع أنني - يعني - لم أكن حزيناً. لا على ما فاتني - إن كان قد فاتني شئ - ولا على ما حدث في ساحة الاحتفال العسكري المجهض.

قال: رأيتها بعد سنوات فلم أعرفها إلا بالكاد. ومع أن السنوات لم تتقدم بها إلا أنها بدت شمطاء، محنية الظهْر، ملامحها قد تصلبت وعلى نحوٍ ما شاهت وفقدت عذوبتها.

ثم اختفت من حياتنا، كما يختفي كل شئ.

كأنها لم تحدث.

هل حدث شئٌ على الإطلاق من هذه الحكاية كلها؟

أتيك القاهرة

٢٦ يوليو ٢٠٠١ ـ ٢ ديسمبر ٢٠٠٢

قارب صيد على النيل

عم شعبان – صياد السمك – ضاقت به المعايش.

اتشحطط وشطحت به الأحوال هو وامرأته وابنه محمـــــود، مـــن غرفة رثة بدون منافع، إلى غرفة أشد رثاثة في أغوار حواري بـــولاق ودخانيق امبابة الجوانية، لغاية خرابات معروف.

وفي مرة أجّر غرفة – من غير منافع – في عشش الترجمان، لـــم يكن للغرفة باب، أو يعني مفروض كان لها باب، هو لوح خشب مسنود على ركن الحائط، لا يتحرك.

وجد جيرانه في الغرفة المفتوحة التي أمامه حشداً مـــن أبٍ هـــدّه الحشيش والبرشام وأمٍ ضخمة شبقة الفم وبعدهما يجئ ســـبعة ويمكـــن عشرة أولاد وبنات، نايمين فوق بعضهم بعضاً، بالليل.

وعلى رغم هدّة حيلة هو نفسه، صحا عم شعبان من أوّل ليلة على أصواتٍ ليست خافتة تماماً، فيها شخْر ونخْر وزحير، عندما راقت عيناه بعد طمْسة النوم، دعكهما، ولم يصدّق، كانت الأجسام العشوائية تتحـــرك في العتمة لا يرى أيها فوق وأيها تحت، لا يتبيـــن أيـــاً مـــن الأشـــلاء

والأوصال والأعضاء عارياً وأيها مغطي بهدوم متراكبة مغضنة مدورة على نفسها، ولا يعرف من الذي تنهّد براحة ومن الذي كان مازال يئن من مشقة اللذة المنتزعة.

حلف عم شعبان، بينه وبين نفسه، ألا يرضي بمثل ذلك، أبداً.

في الآخر رضى بأن يرهن رزقه للمعلم حميدة أبو ستة، الصفقة أن يسلّم المعلم حميدة كل يوم ع المغارب اتنين كيلو سمك، جاء بهم النيل أم لم يجئ إذا انكسرت عليه لغاية آخر الشهر يستوفيها، مقابل أن يسلمه المعلم حميدة قارباً، يسكنه ليلاً ونهاراً وامرأته وابنه محمود آخر العنقود، السكر المعقود، وعدة الصيد الشبكة ولوازمها.

قال المعلم حِميدة: آه.. أنا مش فاتحها سُبيل، دى بزنس زيّ أيّ بزنس تانية. أمال .. إديها مَيّة تديك طراوة.

وضحك ضحكة خشنة.

زاهية امرأة عم شعبان لمتّ حاجاتها: الموقد منتفخ البطن وأنبوبة الغاز والحلل الألومنيا، الطبلية والمرتبة واللحاف، والأهم من ذلك كله جوزة عم شعبان وعدة المزاج والماشة والمنقد والفحم أما المعسّل والحشيش فحسب تساهيل ربنا زيّ السمك، وهو الرزّاق الكريم.

صاحبي توطدت بينه وبين عم شعبان معرفة بل صداقة.

ابتاعَ منه مرّة شروة سمك بلطي عملت بها زوجته طاجن في الفرن يستاهل بُقك.

وعنها كان يعدّي عليه كل جمعة، جمعتين، يأخذ النصيب ويعطيه ما فيه القسمة.

كان القارب صغيراً، وقديماً، أخشابه صدئت ولم يطّلها القار الضروري سنين عدداً، وزاهية استطاعت أن تمد عليه، يعني على جزء كبير منه، تندة من قماش قلع قديم مرقع ستين حِتة ولكن متين، تظلل حاجاتها من وقدة الشمس، يمكن تدفئهم قليلاً بالليل من لذعة برد النيل القارس عند الفجر.

عم شعبان ضاحك السنّ دائماً، رغم البلاوي التي تحطّ عليه، مغضّن الوجه جداً، عظميّ الوجنتين، قاتم السمرة، ولكن يشع من عينيه النفاذتين مزيج من الطيبة والمكر والحَذَر والتوجس من كل مجهول، أو حتى من كل معلوم.

في الصبح المبكر – وهو رايح شغله – صاحبي رآه يفرد شبكته العريضة على وجه المياه، بينما زاهية تجدّف بيد وتمسك الدفة باليد الأخرى تسيّر القارب بعيداً عن كتل وَرد النيل الغَفيرة الشرسة الطافية على وجه الغَمْر. ومحمود في حجرها أو حتى تسنده على صدرها وهو يرضع من بزّها الطريّ الأسمر، تنبسط خيوط الشبكة في دائرة واسعة، ينتظر عم شعبان بصبر بينما القارب يترنح، يميل ويعتدل على سطح النيل المتدفق بكسل تحت كوبري قصر النيل، ثم يعود فيشد الشبكة، يعتل وحده بقوة، تقاومه الخيوط المثنية بأحمالها، ثقلت أم خفت، حتى

يلمها ويرفعها إلى القارب الذي يميل بشدة ولكنه لا ينقلب - طبعاً - أبداً، ويرمي بالرزق، أيا كان، حامداً شاكراً أو ساخطاً متمتماً بالشتائم القبيحة، في بطن القارب.

تنقده زاهية وتفرزه وتضع السمك الكبير في مقطف مخصوص لزوم المعلم حميدة، أما الصغير والبساريا فللأكل أو حتى للبيع للمعارف من أهل بولاق أو امبابة وللأصحاب.

يحلق فوق القارب عصفور الجنة اسود الجناحين مرفرفاً، يذهب إلى بعيد، ولكن الخطر من "النوارس" النيلية التي تنقضّ على السمك بسرعة خاطفة تقتنص لنفسها سمكة وترتفع في لمح البصر.

ع المغارب في أيام المحاق، والقمر مخسوف ممسوح، يعود عم شعبان بقاربه وعائلته الصغيرة إلى ركن الجسر الترابي، تحت كوبري قصر النيل، غير بعيد من الكازينو الأنيق، مهدود الحيل كأنما زادت غضون وجهه العظميّ عمقاً وسواداً، وبعد أن يأخذ عم شعبان مزاجه، توقد زاهية وابور الجاز على أكلة العشا سمك مع باذنجان وفلفل مقلي تفوح لها رائحة تفتح النِفْس، بامية قرديحي من غير لحمة (اللحمة لا يذوقونها - طبعاً - إلا في المواسم والأعياد) فول وطعمية، من غير شك، أما الفاكهة فلا يعرفون لها طعماً، إلا لماماً ومن سِكرتةِ البياعين.

يأتي الواد خريشة من صبيان المعلّم حميدة كل يوم، ع المغارب، ليتسلم طريحة اليوم، بالوزن والحساب.

أما في الليالي المقمرة فيخرج عم شعبان بقاربه وبيته إلى عــرض النيل، فالرزق، أيام القمر، موعود.

على آخر الليل الولد محمود يكون قد نام على حجر أمه أو تحــت حنَيْة جدار القارب، على المرتبة، وأمه غطته باللحاف، بينمـــا ينســاب القارب القديم ببطء، وقد خلص كدّ اليوم وكاد أن يخلـــص علـــى عــم شعبان، حتى يقف، مع رجّة خفيفة، على الجسر الـــترابي، فــي المـــاء الضحل العكر الذي تطفو على وجهه نفايات مرتبكة غير محـــددة مــن بقايا الخضر وقشور السمك وأحياناً ريش فراخ مبتلة مشــعثة وأكيــاس بلاستيك سوداء وبقع داكنة غير بريئة، ما يكاد القارب - البيت يســـتقر ويستكنّ إلى مأواه حتى تبادر زاهية بإشعال الجوزة، أولاً وقبل كل شئ، ورصّ الحجر والتهوية على النار حتى تمسك وتتوهج وتفــوح رائحـــة طيبة حين يشد عم شعبان أنفاسه الأولى، وقد أغمض عينيـــه، وســـابت مفاصله، لا من الأنفاس التي تعدل دماغـــه فقــط، بــل مــن الراحـــة والاسترخاءة بعد الوقفة والمناهدة مع الرزق شحيحاً كان أم وفيراً.

أضواء مصابيح الكازينو على الشط تنعكس على مياه النيل الليلية، ولكن عمل اليوم لم ينته بعد عند زاهية، هي لم تغفل لحظة طول اليــوم لكن عليها أن تجهّز أو تسخّن العشا حسب الأحـــوال للراجــل أولاً ثــم لنفسها، وبعد أن ينسطل عم شعبان ويفوق ثم يعاوده الخدر والصحـــو،

تنفتح نفسه للأكل فيتعشى وهي تخطف لقمتين على ما قُسِم، وإذا فرجها ربنا، وفي دِرا الجسر وعتمة الليل يحلو الوصال الصامت الخشن المباشر، يأخذ الرجل مزاجه، تسلم المرأة له نفسها دون حساب لما قد يأتي به الفرج أو لا يأتي ودون انتظار لما يقال إن النساء يعرفن فيه رعشة تحقق نادراً ما تحدث سواء أحس أو لم يحس بها الرجل في عنفوان إفراغه لشحنته، إذ يستدير ويسقط فجأة في نومٍ هو إلى الغيبوبة أقرب، حتى يشق الفجر صفحة السماء القاهرية القاتمة وتطلع الشمس ويصحو الرجل وهو يكحّ ويجاهد في أن يطرد البلغم من على صدره، ويتمتم كأنما لنفسه، لا يدعو أحداً ولا ينتظر استجابة.

– اصطبحنا يا رزّاق يا كريم، استعنّا على الشقا بالله، قومي يا وليّة يا خُمّ النوم إنْتِ.

تسوي زاهية ثوبها الذي انحسر بالليل عن فخذيها الريانتين وتسوي شيئاً ما في شعرها المنكوش تحت المدوّرة الزرقاء المغضنة، وتغرف بيديها حفنة ماء من النيل تطس به وجهها الذي ما زال منتفخاً قليلاً من النوم، وتخرج ثديها الملئ فتلقم محمود الذي كان قد بدأ يتململ ويتلمس صدرها بحثاً عن ريٍ لظمأٍ كأنه لن يرتوي أبداً.

قالت زاهية: اسكت يا خويا .. مش امبارح الميّة غرقت فرشْة الواد. دُخت على بال ما نشّفتها وسديت الشرخ اللي في الجنب اليمين، كده على ما قُسُم. يا ترى إمتى بقى حَنألفطوه؟

قال شعبان بسأم: ربنا يسهّل يا وليّة. أدي إحنا بنسايسوه، نيّلســـوه زيّ ما ييجي. ما هو المعلّم حِميدة قال حيألفطه، أدي شـــهر والتـــاني، مْوتْ يا حمار بقى على ما يجيلك العليق.

ردّت زاهية، وهي أصلاً من دمياط، مثل عم شعبان، تمصمـــص بشفتيها وتدعك إصبعها السبابة باليمين، على رأسها، بحركـــة دائريـــة، طرداً للنذير وسوء العاقبة:

- يا خويا صلِّ ع النبي أمّال: فال الله ولا فالك. الشرّ بـــرّه وبعيـــد، ده ربّك هو الحفيظ ..

يومها هبّت فجأة ودون مقدمات عاصفة رملية سوداء.

أظلمت السماء كأننا في نصف الليل والقارب في قلب النيل أخـــذ يترنح ويتمايل تحت ضربات الهواء المحمّل برمل دقيق ناعم قاتم يخبط الوجه كأنه ألف إبرة لا تُرى لكنها تخترق الجلد وتُلجئ أهل القارب إلى حماية العينين من عَصْف الإبر تأتي من كل اتجاه، يسحب عم شـــعبان شبكته من الماء، وهو يجاهد الرياح متضاربة التيارات والمياه متقلبـــة الأمواج في وقت واحد، ويزحر ويشهق ويسب ويلعن ويشـــد الخيـــوط التي بدا فجأة أنها قد ثقلت بحمل لا يطاق رفعه من قبضة الماء، وزاهية تحرك المجداف لا تعرف إذا كانت تتجه إلى الشط أم تنساق في وســـط النيل، والدفة بيدها الأخرى تقاومها وكأنما لها إرادة خاصة، لا تتحـرك، بل يندفع القارب لا يمكن السيطرة عليه.

ما كاد عم شعبان يُسقط الشبكة بما تحمل مما لا يكاد يراه في بطن القارب حتى أحس صدمة قوية بجدار القارب، ترنح معها ومال علـــى جنبه وانزلقت الحلل وموقد الغاز المطفأ حتى أوشك كـــل شـــئ علـــى السقوط في النيل لكن القارب اعتدل وانطلق إلى الأمام وعادت الأشـــياء إلى مكانها.

ما الذي اصطدم بالقارب مرة أخرى تلك الصدمة المدويـــة، فـــي العتمة السوداء التي جعلت من النهار ليلاً دامساً؟

هل كان ذلك خطم حيوانيّ طويل مفتـــوح الفكيّـــن عـــن أســـنان متراصة، يطفو جسمه الصلب المغطي بحراشيف بارزة متراكبـــة، ثـــم يختفي في اليمّ؟

دعَك عم شعبان عينه، لم يصدق ما رأى.

خيل إليه أنه يصعد من الماء مرة أخرى، جســـم نـــاعم مســـتدير الحنيات ضخم، ظهره المقوس كأنه يلمع في الظلمة، ورأســـه الـــهائل جاحظ العينين، كُرتيْن بأجفان جلدية ثقيلة فيهما نظرة لم ير مثلها شـــراً وكيْداً ونيّة معقودة على الأذى.

صرخت زاهية بصوت ثاقب:

- محمود ..! محمود ..! يا شعبان .. الواد وقع في الميّة.

لم يتردد شعبان لحظة، رمى بنفسه في المـــاء، وغـــاص إلـــى جـــانب القارب، وضرب الموج بذراعين لا يعرف من أين أتته القوة فيهما، قبّ وغطس مرة ومرتين.

ثم امتدت ذراعه وفي حنيتها محمود الطفل، وقد انجابت العاصفة وانجلت الظلمة فجأة كما سقطت فجأة. التقطت زاهية الولد الذي كان يشهق ويغصّ بالماء، قلبته على رأسه وأخذت تخبط على ظهره والماء ينساب من فمه وأنفه يا حبيبي يا ضناي، يقطعني إن شالله أنا، نفختْ في فمه، حتى شهق الولد وأخذ نفساً مكروشاً ثم أعول باكياً، الحمد لله، أحمدك وأشكرك يا رب، أهو كده يا بني يا ضناي، تحتضنه إلى صدرها، وهي تبكي بدموع الفرح.

عم شعبان قبَّ وغاص في الماء للمرة الأخيرة.

سطعت الشمس، وعادت سماء القاهرة إلى زرقتها المسودّة الكابية المعتادة.

شعبان لم يظهر.

عندما وصل القارب إلى الشط كان ينتظره جمع صغير من البيّاعين وأولاد البلد، منهم الواد خريشة مع اثنين ثلاثة من جرسونات الكازينو.

- البقية في حياتك يا ست زاهية.

الإسكندرية - ميامي

٢٩ يوليو ٢٠٠١

في شارع سعد زغلول

"محضر ضبط واقعة.

في يوم الاثنين الموافق ٦ شهر فبراير ١٨٩٥.

أنا العباسي أبو إصبع معاون بوليس قسم العطارين.

في تاريخ حال وجودي بمركز القسم نحـــو الســاعة ٩ أفرنكـــي صباحاً حضر أمامي العسكري محمد أحمد البوليس بالقسم نمـــرة ١١٢ ومعه كل من حسن علي الحَمّار نمرة ١٨ والعسكري جون الإنكلـــيزي نمرة ٥٢٠ آلاي استافورد.

وتقرر من البوليس المصري بالآتي:

اسمي كما ذكر وعمري ٢٥ سنة وأقـــول إنــه بحـــال مـــروري بالداورية بشارع العطارين شاهدت حسن علي الحَمّار يضرب العسكري الإنكليزي جون الواقف أمام حضرتكم بالعصا في رأسه فأجريت ضبطه وأحضرتهما للقسم.

سئل العسكري الإنكليزي المدعي عن شكواه فتقرر منه بـــــآلاتي: اسمي جون ٢٢ سنة عسكري بيادة بآلاي استافورد عمـــري ٢٢ ســنة

ومقيم بكوم الدكة أقول إنني قاولت الحَمّار. وأشار على المتهم. بمبلغ ٣ قرش صاغ لحد القشلاق ولما وصلت إلى نقطة العوائد أراد الحمار أن ينزلني فأنا عارضته لأن المقاولة كانت لحد القشلاق في كوم الدكة. وأخيراً أوقف الحُمار، وضربني بالقلم ثم ضربني بالعصا على رأسي عدة مرات إلى أن استغثت بشاويش النقطة وأحضرنا للقره قول.

أرسل العسكري الإنكليزي لتوقيع الكشف الطبي عليه وتقرر له أربعة أيام معالجة كما يتضح من الكشف طيه.

سئل المتهم بالآتي:

ما اسمك ولقبك؟

اسمي حسن علي وعمري ١٥ سنة وصناعتي حَمّار نمرة ١٨ ومولود بالأنفوشي وأقول إنني لا ضربت العسكري ولا شئ ودعواه علي كذب، والحقيقة أنني كنت قاولته لحد القشلاق وأراد أن ينزل بدون أن يعطني الأجرة وبصق في وجهي ثم حضر شاويش الدورية وأخذنا للقرة قول

قفل المحضر في تاريخه حوالي الساعة ١٠ أفرنكي صباحاً".

معاون بوليس قسم العطارين

إمضاء

كان شارع سعد زغلول يموج بازدحام الناس، يتدافعون ويتلاحقون ويشقون لأنفسهم بالكاد طريقاً بين الأجساد والأكتاف والبنات الصغار والعيال والشحاذين الرابضين على الرصيف، والبيّاعين أمام بضاعة رائجة يصيحون ويزعقون عليها بـ "سبعة جني ونُصّ .. تعالَ بُصّ..!" والرجل الجِدّع مبتور الذراعين قابع على قاعدة خشبية جنب حائط مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب، والستات والبنات المحجبات والسافرات والمنقبات لا تبين منهن إلا عيون بصّاصة لامعة أيديهنّ في قفافيز قماشية وأرجلهن في أحذية رجالي من غير كعب، رجالهن أطلقوا لحي شائكة غزيرة وحقوا شواربهم، والخواجات القلائل بالشورت البرمودا فوق الركبة نساؤهم عاريات الأكتاف عاريات النحور في بلوزات هفهافة بحمالات رفيعة على صدور صغيرة لوحتها سمرة الشمس المصرية، يسرن دون مبالاة وسط الحشود المتراكبة المحدقة في واجهات المحلات والمندمجة في أحاديث البيت والبيع والشراء بين تلال من القمصان والجاكتات المستعملة أو المضروبة، بعشرة جِنِي إلحقْ، كلّه م المواني إلحقْ يا جدع بأعلى عقيرة الصوت تحت صندوق الزبالة المرتفع الطافح بما فيه من روائح عفنة ونفايات عالية أمام الفندق الفخم وبعد "اورزدي باك" الذي حل محل "الفريسكادور" البائد في الخمسينيات.

الأنوار تسطع ثم تخبو على واجهات محلات الأزياء والأفران.
السيارات تزحف ببطء ثم تندفع.

كان التمثال الشامخ غير بعيد لا يلعب هواء البحر بمعطفه الجرانيتي السابغ، لكنه يرفع يده، داعياً، منذراً، مبشراً، محرضاً أم يائساً؟ هل كان يرفع يده حقاً؟ الفندق العريق أمامه يبدو كأنه مثقل بالتاريخ، كانت النوارس البيضاء والسوداء تحوم حول رأس التمثال، مشتعلة الأجنحة، تمتد شعاليل النار منها حتى توشك أن تمس الجرانيت ثم يتطاير بها هواء البحر، تنعق صارخة كأنما هي تُعول أو تصيح صيحات النذير.

توقفتُ مع جماعة من الناس إذ أسمع شتائم منتقاة من آخر طراز، بصوت حريمي حيّاني ثاقب، تنصبّ من فمٍ واسع مضمّخ بالروج الفاقع، امرأة نصف عمر، ناحلة مخسوفة الصدر، حادة العينين، شعر أجعد أكرت به آثار صبغة الحناء وفستان من قماش رفيع مشجر مبقّع بألوان صارخة، على ساقين عجفاوين، تجرّ بيدها فتاة يانعة الصبا، صموتاً خجولاً فيما يبدو مزجّجة الحاجبين: قوسين رفيعين مرسومين، الروج هادئ وعميق على شفتيها المحددتين بخطّ أعمق وأكثر قتامة من الروج في جاكتة جينز زرقاء خشنة المظهر باهتة – أنيقة جداً وع الموضة جداً – وتحتها بلوزة حريرية شفافة تنمّ بوضوح عن دانتيلا

السوتيان الأسود الأنيق الذي يحبك نهدين مليئين غير صغيرين وغير طافحين، وجيبة طويلة سوداء، منقوشة بنقش رقيق من لون القماش نفسه مفتوحة على الساقين المسحوبتين ناصعتي البياض، تضم ردفيها اللذين يتحركان بموسيقية واضحة ومقصودة، وهي تقول بصوت فيه شبه ملل "خلاص يا ماما .. سيبيه بقى .. دول ولاد كلب ما يستاهلوش.. خلاص بقى" بينما الشتائم البذيئة، بالأمّ والأب والأعضاء والوظائف الجنسية جميعاً تنهال من فم "أمها" بلا توقف.

ما أبعد هذه الصورة عما كنا نعرفه – وقرأنا عنه حتى الملل – من بائعات الجسد اللاتي يطحنهن الفقر والبؤس، في غرف سيئة الإضاءة سيئة الرائحة.

الولد الذي يسير ببطء خلف الثنائي، ضئيل الجسم وإن كان عالي الصوت، ممصوص الوجه ولكن واضحٌ أنه رياضيّ قويّ العضل، على صِغَر قامته، يقول مُخاطباً لا أحد، كأنه يبرر لنفسه وليس لحشد الفضوليين المتجمع حول المشهد الصغير:

– وليّة مجنونة، دي عايزة ميت جِنيه في النـ ، وخمسميّه في الليلة، بنت الأحبة .. ميت جِنِي ..! دا حتى يبقى حرام وافترا كمان.

أخرجت المرأة من حقيبتها – وهي ماتزال تسهضب بالبذاءات السافرة القبيحة – تليفونها المحمول، سكتت وهي تدق الأرقام، وإذا صوتها رقيق، خافت، شاكٍ، ضارع فيه نغمة غنج خفيف وهي تتحدث

في المحمول. ابتسمت، أنهت حديثها، دقت على الجهاز، وانطلقت مـــرة أخرى، كأنما هي أسطوانة مشحونة بسبابها القبيح.

المرأة تقف فجأة:

- والله لا مومكِنْ .. أبداً .. بيني وبينك الحكومة، أنا رايحة الكراكــون، طب دانا حاورّيك، هو انْت فاكرنا هَفيّة والاّ فاكرنا هفيّة .. يا ناس يـــا هوه، جرجروه معايا ع القسم ابن المـــ.. الخـــ.. أما أشوف أنـــا ميــن وهو مين.

- ويعني أنا حاخاف واكشّ من دا الوشّ، يالاّ على الكراكون.

الولد يبدو شجاعاً – أو لعله مستميت.

رأيت في الشارع أن عواميد النور العالية قد تعلقت بـــها جدائــل وافرة كثيفة لنساءٍ متدليات، سيقانهن مرفوعة ومخبوءة ولهن أجنحة مثل أجنحة البجع الضِخام، ريشها الوحْف متراكب ناعم الطوايـــا مضمــوم على أجسادٍ غير مرئيّة، تصدر عنهن صيحة الباعة من تحـــت، كأنـــها صدىً، كأنهن ببغاوات، شفاههن المضمّخة بروجٍ قانٍ كأنه دمُ طـــــازج تصدر عنها نداءات "كلّه بجنِي ونصّ.. بُصّ بُصّ بجنِيهْ ونُصّ" وكأنمـــا استحالت الشفاه الدسمة إلى مناقير طويلة معقوفة وحادة وكـــأن شـــعور النسوة التي تعلقن منها بأعمدة النور قد أصبحت قبازع حمراء مفـــرودة على شكل نصف دائرة، وعيونـــهن عيـــون المَـــها، نجـــلاء مُصْمِيـــة بالصبوات المستعصية، وعرفت أنهن لو انتزعن عن التعاليق المنصوبة

اعتراهن الجفاف والموات، وانطفأت العيون وتهدلت المناقير إلى لحم رخوٍ ثم سقطن يابسات منكمشات وقد تقلصت أجسامهن اللدنة الشهية إلى مقدار شبرين طولاً، وإلى حجم قبضة يد مطوية على أصابعها، عرْضاً، وغاضت منها كل عصارة، أوراق شجر هشة مرمية على الرصيف، يدفعها الهواء في شارع سعد زغلول.

في القسم، فتح المحضر الصول العجوز، منتفخ الوجه، أكرش وأجش الصوت. "نحن الباشاويش محمود بلبل أبو اصبع، معاون شرطة قسم اللبان في تاريخه، وحال وجودي بمركز القسم، في الساعة ٩ مساء، حضر أمامي .." إلى آخره إلى آخره.

المرأة ومعها فتاتها، تقفان بنوع من المبالاة والاطمئنان، أما الولد فيحاول أن يتخذ مظهر الجدعان.

يرن تليفون القسم، يتململ الصول لأنه لا يحب المقاطعة، ويعني هو ناقص ..!

لكن التليفون يرن بإلحاح.

- آلو .. أيوه .. مين؟

لكنه فجأة يتخشب بحركة لا واعية، يعدل الكاب فوق رأسه، ويمر بيده على أزرار جاكتته، وبصوتٍ خانع خاشع وفي غاية الانضباط والتهذيب:

- حاضر يا باشا .. أمرك يا باشا .. حالاً يا فندم .. أمرك يا باشا ..

"أمرنا بالإفراج عن الشاكية السيدة نعمات الخضيري وشهرتها نعمات ولعة والآنسة ميرفيت عبد العال بضمان محل إقامتهما. وحجز المشكو في حقه المدعو عوض الغر في مبنى القسم تمهيداً لعرضه على النيابة، بتهمة خدش حياء أنثى في الطريق العام.

وأقفل المحضر على ذلك في ساعته وتاريخه".

معاون بوليس قسم العطارين
إمضاء

القاهرة ١٣ أغسطس ٢٠٠١

الحصان الأبيض

دخلتُ إلى "الحصان الأبيض" من حارة مرصوفة بأحجار البازلت المتلاصقة الصلبة المحدبة قليلاً. أرضية الحارة نظيفة جداً، لامعة من البلل. للحصان الأبيض باب قصير يرتفع إلى ما تحت القامة، ويمكن أن تطلّ منه بسهولة، وهو من مصراعين تدفع أحدهما لتدخل - أو تخرج، طبعاً - ويبقى الآخر في مكانه.

اللافتة على تربيعة الحائط الحجري السميك، بالعربي والإنجليزي، بخط حرّ متلوّ باهت البياض، على أرضية سوداء، وإلى اليمين رسم الحصان الأبيض الشهير.

قبل أن آخذ سكّتي إلى الحارة أحكمت المعطف الواقي من المطر حولي، وأقفلت ياقته، كانت لذعة برد من هواء مينا البصل قد جعلتني أرتعش.

عندما اصطفق أحد مصراعي الباب خلفي وهو يصطدم خفيفاً بالمصراع الآخر، هبّت عليّ الرائحة المعتادة من دفءٍ مخامر ونفثٍ

متلبّثٍ لصنوف من الكحول، استطعت أن أميّز من بينها فَوْح "البوظـــة" السوداني المتخمّر المتخثّر، وحرافة نشارة الخشـــب المفروشـــة علـــى البلاط. نفح ملحيّ قليلاً من "أم الخلول". بخار يهفّ عليّ من المطبخ فيه عبق خاص جداً من شرائح الكِرشْة المطبوخة بالصلصة والبصل، مـــع أنفاس خُضرة غامضة.

أقبل عليّ عمّ أحمد الجرسون العجوز، وجهه داكن البشـــرة جـــداً يشرق بالترحيب فتزداد عمقاً غضونُه وتجاعيده وطياتُه المتهدلة وعينـــاه المشدودتان، ابتسامته تشرح القلب:

أهلاً يا بيه .. نورّت المحل نورّت شارع انسطاسي كله والله ..

الساعة الثانية بعد الظهر تماماً، ساعة قديمة كالحة مدورة الوجه علـــى حوافها نقط دقيقة كثيرة من مخلفات أجيال الذباب، صدرت عنها دقتـــان كان لهما رنين مفاجئ وصدى في المحلّ الخاوي، لم يفتـــح الله عليـــهم بالزبائن بعد، كنت أول القادمين، وتمنيت في نفسي أن يكون الخير فعلاً على قدوم الواردين الذين هم أنا وحدي، يعني، بالتحديد.

اخترت كالمعتاد المائدة التي في الوسط على الصفّ اليمين وأنـــت داخل. وأومأت برأسي إلى عم أحمد الذي عاد من جُوّه وفي يده زجاجة البيرة الاستيلا على زجاجها ضباب خفيف – استخرجها عم أحمد مـــن صندوق الثلج الحديديّ الكبير الذي تراكمت فيه ألواح بيضاء وشـــهباء وشفافة، كاملة أو مكسورة، وبينها شقافة شظايا الجمَد البلّوري ســـحريّ

المفعول بين أجساد زجاجات البيرة السمراء، والسباتس البيضاء، والسينالكو الضاربة إلى اصفرار برتقالي. (لم نكن أيامها قد عرفنا الكوكاكولا ولا البيبسي).

وعم أحمد يحمل في يده الأخرى كوباً طويلة مسحوبة، عريضة القاع، هكذا، من غير حِرص ومن غير صينية، ويقول لي، من غير تكليف، بلهجته الصعيدية التي أحبها:

- ما تراعيش عاد يا خيبّي .. المازّة المعتبرة مش حتعوّج ..!

أشعة شمس الشتاء تسقط على الحائط المقابل أحسستها باردة كأنها مرسومة فقط، خطوطاً مستقيمة رفيعة، أعواد رقيقة أو أسلحة مسنونة، تنفذ من الفتحة العلوية، المستديرة، هي نافذة في قمَرة سفينة مبحرة في اليمّ، قضبان الحديد صدئة قليلاً لكن لم تظهر على جسمها قشور الصدأ الهشة. تحت النافذة، بين الموائد المربعة المفروشة بالمشمع القديم أبيض وأسود، أصص ريحان تبدو عيدانه ناحلة وكأنها على وشك أن تنقصف، وإن كانت خضراء يانعة مراوغة الخضرة مع عيدان العِتر، غضّة، متكاثفة، متلاصقة، بنيّة اللون قاتمة متضامّة، تدافع عن بقائها بعناد متماسك قويّ.

عندما خَفَتَ صدى الدقتيّن الرنانتين - لا يُصدق أنهما صادرتان عن آلة الوقت المتهالكة - أحسست فجأة بالشكّ.

هل كانت الساعة الثانية حقاً؟ وهل سمعت دقتين فعلاً، أم خيّـــل إلـــيّ؟

وأين أنا على أي حال؟

هل موعدي الساعة الثانية؟ هنا، في "الحصان الأبيض"؟

أم أن ذلك كله غير صحيح ..

العالم، كل شئ، موضع شك.

قلت: أو على الأقل، موضع سؤال.

سمعت دقاً منهمراً متصلاً من الخارج، لم أكن قد لاحظت أن خطـــوط الشمس على الحائط أمامي قد زالت، حل محلها ضوء غائم شائع علـــى بقعة غير محددة المعالم.

قلت: لعلهم لم يجيئوا لأن المطر عوّقهم..

قلت: منذ متى كان المطر عائقاً؟

ارتعدت - رغماً عني - من خطفة ضوء ساطع سقط عليّ من النـــافذة العلوية، ثم أعقبته على الفور صدمة الرعد يقعقع ويجلجل لا في القاعـــة المستطيلة بل في السماء الشاسعة المدججة المثقلة مع ذلك بجَهَام السحب الداكنة المكفهرة.

يهمي المطر لا يغسل وَضَرَ السؤال الملحّ.

الرعد والبرق يمزق سماءً داخليةً فيّ يوسع شروخها المنشعبة.

لم يجيئوا.

هل أخلفوا الوعد أم أن الوعد لم يكن قائماً من الأصل؟

هل الموعد هنا أم في مكان آخر؟ أم هو في لا مكان، ولا زمان؟

قال لي عم أحمد وهو ينظر إليّ نظرة جادة "الغايب حجته معاه يا أستاذ".

لماذا الغياب؟

الحصان الأبيض الصغير نزل على المائدة أمامي، رقيق السيقان، رافع الرأس، صافناً يصهل بنغمة خفيضة جداً لم أكد أسمعها ولكنها جياشة بالنداء الذي لم أفهمه.

هذا الكائن البرّي الحوشيّ، حراً، لم يطأ صهوته أحد، كيف أجده في الحارة الضيقة، على أحجار البازلت المنداة ما زالت خطوط سائلة من بقايا الغَدَق الوابل تسيح عليها إلى البالوعات التي تقرقر بصوت بهيج.

الحصان الأبيض يجرّ حطام سيارة مهشمة، انخسفت واجهتها الأمامية كلها وانبعجت أطرافها الحديدية ناتئة حادة السنان، أضلاع محطمة جافة في قلب حطام أضخم وأبلغ شوْهاً. كيف أصبح الحصان، والسيارة، ووعيٌ يسري في الضلوع الحديدية والعظمية على السواء، كلها، كائنا واحداً، آخر؟

ما الذي يقرقع على البازلت؟ أهو الرعد يقصف من جديد ينذر بتهتان العُباب المنهمر أم هي عجلات السيارة المحطومة، قد زالت عنها

أطُرها المطاطية وأعيدت إلى هيكلها الصُلب الذي يخبــط الأرض فـــي ارتطام متواتر؟

في أمواج المطر المتدفقة كنت، بشكل ما، على صهوته، ســـــاقاي تضربان جنبيه الزلقين المبلولين اللذين يرتفعان وينخفضان في حمــــوة الحمحمة وزفيف الأنفاس، تحت الماء.

الهيبوكامباس أبيض اللون يخوض غمرات اليــمّ، ذيلـــه يضـــرب الماء، زعنفة سمكة كبيرة، فيها حياتها الخاصة، تتحرك إلى اليمين وإلى اليسار بنعومة فينساب الجواد الإلهيّ مطيّة الآلهة يشـــق الخضــمّ بيـــن حيطان الدكاكين الضيّقة المغمورة تلمع فيها الأواني والمواعين النحاسية متوهجة الصفرة، رقرقة الأمواج في هذا العالم السفليّ الصامت هي كل ما أسمع من صوت، لا حس ولا نبرة غيرها.

هل الحصان الأبيض قد ظهر له في منتصـــف الجبهـــة الشـــماء، تماماً، قرنه الوحيد المدبّب شاكي الانتصاب، رمحاً قصيراً نفاذاً؟ وهـــل حول عنقه عقد ورود اصطناعية من القماش الأحمر بللها رذاذ المطـــر، ما زالت تتقطّر منها هبوات من الماء المتطاير في هبوب هـــواء مينـــا البصل؟

هل سمعت من يهمس إليّ بصوتٍ سحري:

- "سوسيم" الفخور الجميل دَخَل الحارة الاسكندرانية كمـــا دخــل دلتـــا الوادي العريق بصحبة عشتارت ربّة الفرسان، ما أقربها إلى عشــتروت ربة العشق كلتا الإلاهتين تأتيانني مدججتين بالجمال مزججتين نجلاوين، هل أعنو لأيهما؟ أم أن مجد الشبق مِثل مجد نبالة الجواد الثمين وهـمٌ لا يُنال؟

هل خرج الآن إلى شارع انسطاسي، يسير تحت كوم الناضورة؟

تلاشت السيارة المهشمة كأنها لم تخطر على البال قــط، يتخطــر الحصان الأبيض ببطء على أرض الشارع الواسع التي مازالت يتحـــدر ماء المطر من جانبيها بصوت رقرقة رتيبة الإيقاع، الجلاجل النحاســية الصغيرة تهتز وتصطفق حول الرقبيّة الجلدية عكرة اللون مثنية محيطـة بالعنق التلعاء إحاطة آسرة لا فكاك منها وثم سلاسل نحاسية تتدلى مـــن الرقبيّة، مثبتة فيها بمسامير مدوّرة لامعة متقاربة، وحيد القرن مـــا زال أشمّ الرأس، متحدياً، لا يُخضعه أسْر.

"كليوباترا .. أيّ حلم في لياليك الحسان .."

صوت الراديو القديم يعلو في الشارع الرطب، وقد غامت السماء تمامــاً ولكنها أقلعت، ولم يعد طسّ الرذاذ إلا كأنه وهمٌ متطاير. هل هي جنّــة الصبا المفقودة أم سحر رومانسية هشة القوام متهافتة، تصعد بالدموع؟

قلت: لن يجيئوا إذن، أبداً.

ضممت جانبي المعطف حولي، ورفعت الياقة حول عنقي.

واصطفق أحد مصراعي الباب خلفي.

القاهرة ١٦ أغسطس ٢٠٠١

في حارة فرط الرمان

كانت حارة فرط الرمان في الأنفوشي غارقة في نور قمر ١٤.

الحارة صاحية. على مدخلها من ناحية شارع ١٢ أقام الباعة نَصْبتهم وعلقوا بضاعتهم: هدوم حريمي حريرية وشفافة نايلون وقطن وقمصان نوم وملابس داخلية مكشوفة للعيون يلعب بها الهواء ولعب الأطفال – والكبار – من كل لون وصنف، صناعة الصين، سيارات صغيرة دقيقة التقليد وبالونات وعرائس صغيرة وكبيرة ناطقة وصامتة، متحركة العينين وشقراء ومبهرجة وعاقلة المظهر، وساعات وولاعات وأدوات حلاقة وفُرَش وأنابيب وفُوَط وقمصان وجاكتات صيفي وشامواه أيضاً مع أننا في عز الصيف، والأحذية والشباشب والصنادل، أكواماً فوق أكوام، تسد مدخل الحارة وينفذ الداخل إليها بالكتف وبالكاد.

السيارات الشيفروليه نصف النقل والملاكي نصر وتويوتا وفورد قديمة مركونة إلى يمين الحارة، ملاصقة للحيطان العتيقة وأسوار الخرابات التي تحولت إلى ملاقف للزبالة، لا تترك للمشاة أو للسيارات

أو عربات الكارّو، سواء، إلا الممر الضروري، كلٌ يناور، بقدر مهارته، في النفاذ إلى غرضه.

مشهد يوميّ متكرر، وربما مملّ.

القمر وحده غير معتاد، مفاجئ، بِكْر، ساطع ممتلئ، كأنه يطلع لأول مرة.

الولد بلبول ترك الفرن الذي يشتغل فيه، على قمة شارع ١٢ وجاء إلى حارة فرط الرمان، خلّص شغله وقلع الهدوم الوسخة – قميص كاكي لونه اِجربّ وبنطلون مهدّل رماديّ مبقع اسودّ في حِتَت وابيضّ من الطحين في حتت، ولبس الحتة اللي ع الحبل، واتلمّ مع العيال أصحابه، وخرجوا للفسحة والمعاكسة وجرّ الشكل والمرح والمهيصة.

عندما مرّ ببلكونة هدير الفنجري، شبّ قليلاً على قدميه، كان سور البلكونة منخفضاً يطل على الحارة مباشرة، الست هدير وبنتها الكبيرة – داخلة إعدادي على أول السنة – وأخوها كانوا في البلكونة الأرضيّ.

الواد بلبول صفر بفمه صفارة الإعجاب الثاقبة.

هبّ عمر أخ هدير وشتمه شتمة قبيحة.

ردّ عليه الولد بلبول، بأحسن منها، خصوصاً أنه كان في عِزْوة أصحابه، جدعان شمحطجيّة، مفتولي العضلات، مزهوّين بريعان الفتوة والصبا وخفة القلب.

وانقلبت الدنيا.

دخل عمر وعاد ومعه عصا من خشبٍ لامع وقديم قوية الاستدارة لها مقبض مكوّر على شكل قبضة يد مضمومة، وفي عقبها حلقة حديدية صدئة.

كان عمر نحيلاً، وسيم الملامح، متوفز العينين باستمرار، لا يكاد يتجاوز السادسة عشرة، فيه لطشة تهور وفي دمائه حموة واستشاطة.

ولكنه كان في البيت وحده، أصدقاؤه ليسوا معه الآن.

أما عصابة بلبول فقد التمّ جمعها، وارتفعت أصواتها بالشتائم والنداءات والبذاءات المعتادة، كيف تهان كرامة الولد بلبول في قلب حارته؟ ماذا سيقول أهل الحتّة؟ هل هم عيال يعني؟ أبداً.

وعلى الضجة والتدافع والتشاتم والتصارع تحلق أولاد الحلال من البياعين والجيران والمارّة والفضوليين وأيضاً أهل الخير الذين يدعون إلى الصلح خير، صلّوا ع النبي أمّال يا جدعان، طبْ هو صغيّر خليك أنت كبير، والطيب أحسن لا والله لأورّيه وأورّي اللي جاب أهله واللي يتشدد له يا جدع اِعقلْ أمال، ويحتضنه الرجل الطيب الذي يحاول أن يفضّ المسألة على خير إوع كده سيبني بقولك سيب يا بني صلّ ع النبي أمال. وقذائف السباب بالأم والأب والدين والملّة والأفعال

والأعضاء الجنسية تتطاير وتتناثر بأصوات مبحوحة وخشنة وثاقبة وثائرة ومهدئة ومحرّضة ومستميتة.

حتى دوّت في الحارة صرختها: يا دهوتي – ممدودة عالية فاجعة.

كانت هدير قد حسبت الحسبة، ووجدت أن عمر وحده سوف يؤكل نيئاً، سوف يروح فيها أمام طغمة بلبول الفرّان. رأت أحد أولاد عصابة بلبول

حاول أن يثب من البلكونة الأرضي ليدخل على عمر ويتهجم على البيت، رقعت بالصوت الحيّاني، واندفعت إلى الشارع.

ممتلئة الجسم، ناعمة الوجه، ولكنها الآن قطة أو لبؤة شرسة تدافع عن ذويها، ترد على الشتائم البذيئة بأحسن وأوقع منها، وتنغّم شتائمها بالصوات المدوّي.

وفجأة امتدت يدها إلى جلابيتها الخفيفة الفاتحة فمزقت فتحتها وانكشف أعلى قميصها الداخلي الأسود والحمالات الرفيعة على كتفيها، سقط المنديل أبو أويه من على شعرها السبْط الكثيف، وانسدل الشعر على كتفيها، وهي ترقع بالصوت وتلمّ أطراف الجلابية الممزقة على صدرها الوفير الذي أضاءه القمر بنورٍ فِضّيّ.

وعلى الفور تعدّل الموقف، تراجع بلبول وعصابته، وإن ظلوا يصرخون ويشتمون.

ها هنا تهديد بالتهجم على امرأة، هنا تهمة هتك عرض أنثى، هنـــا جناية لو وصلت إلى القسم

وهو ما تصرخ به هدير: سيبوني أروح القســـم .. والله مـــا أنـــا سيباهم .. ولاد الشـــ .. الخـــ ..

إلى آخر الأوصاف البذيئة المنتقاة، بأعلى صوتها الثاقب المـــدوّي، أما أولاد الحلال فيحيطون بها،يحولون دونـــــها والـــهجوم علـــى أولاد العصابة، وهي بينهم، تدفعهم إلى جنب ويحتصنونها ليقصـــــروا الشـــرّ وينالوا نصيبهم من حضنٍ طريّ، ع الماشي، لكن هدير كـــــانت قويـــة ومدركة وبنت بلد صحيح، لم تنطلِ عليها الخدع ولكنها، في الوقت نفسه لم تهوّن من شأن النيّات الطيبات.

كانت هدير في نحو الأربعين، ولكنها صابحة الوجه، ريّانة، ناعمة البشرة ومدوّرة الحثيات، الآن كانت في وسط الحارة ، بقى لها أكثر من ساعتين تناهد وتصرخ وتزعق بالصوت العالي الرنان، لم ينشرخ، لـــم يعتوره أدنى إجهاد ولا جاءته بحّة، من أين أتت بها كل هذه الحيوية؟

بينما الولد عمر قد اختفى، في خلال هاتين الساعتين. ثـــم وصـــل ومعه أصحابه، طرقوا باب الشقة وانسابوا داخلها، وثبوا من نافذة خلفية على ممر ضيق مترب.خرج في الليل، على الأصوات العالية والأنـــوار

غير المعتادة سربٌ من الفراخ والبط التي تربيها هدير للتحايل على المعايش.

كان عم الحاج عوض الفنجري، عم هدير الذي يقيم الآن في العصافرة، وهو تاجر محترم من أكابر تجار السمك، هجر البِيِش والسروال الاسكندراني واللاسة، واتخذ البنطلون والقميص والجاكته، قد وصله تليفون من أحد أولاد الحلال بأن بنت أخيه وعمر، وبنت أخته، عندهم خناقة لربّ السما في الحارة، ولم يُقِض فاعل الخير بأكثر من هذا، وطبعاً قلق عم الحاج عوض، وهو يعرف مدى شطط هدير بنت أخيه، وما كادت تمر نصف ساعة أو أقل حتى كان هو وجماعة من أصدقائه والعاملين معه قد وصلوا من العصافرة إلى الأنفوشي وكانوا كلهم محترمين، حسني الهندام، بل في لبسهم وسلوكهم أناقة وترفع. ولكنهم لم يكونوا أقل سطوة وفتونة عن أي جدع من أولاد أحْمدات بحري، وبدت أذرعهم من القمصان المشجرة أو المقلّمة نصف الكمّ، مشعرة ملفوفة ناتئة العَضَل، أما عم الحاج عوض فكان في نحو الستين أو أسَنّ، مشدود الظهر ولكنه من باب الوجاهة والمكانة، يعتمد على عصا من الأبنوس متينة الشكل ولها رأس من العاج السمني على هيئة قبضة يد مكوّرة ولها، – كما هو ضروريّ – حلقة حديدية في آخرها،

وكان الآن يمشي بتؤدة، ساكن الطير، رافع الرأس، حوله خلصاؤه، لـــه مهابة.

كانت الست هدير قد تزوجت وخلفت بنتها هدى وطلّقت، زوجـــها كان صاحب سيارتين ثلاثة نصف نقل يشغّلها إســكندرية - العامريـــة، مِعِلّم كسّيب مِقْرش، واضح الرجولة، لكنه لم يستطع أن يتحمل حيويـــة هدير الجنسية، ولسانَها المفلوت دوماً، وربما زوغان عينها، والله أعلــم، أوصانا بالستر على الولايا.

كانت حموة الخناقة قد باخت وهمدت قليلاً، ما زالت هدير تــؤرث جذوتها الخابية، مازالت في الحارة تزعق وتشتم وتهدد وتحلف بـــأغلظ الإيمان، حين ظهر عمها الحاج عوض وأصحابه علــى رأس الحــارة، فأسرعت تدخل إلى شقتها، وكانت السعة الآن قد دخلت علـــى الثالثـة صباحاً، وصوتها لم يخفت منذ ثلاث أربع ساعات، محتفظاً بطزاجتـــه وارتفاع طبقته.

مازال القمر يغمر الحارة.

عم الحاج عوض الفنجري غادر البيت، غير راضٍ وغير مرتاح، قـــال وهو يخرج من الحارة: "فاجرة."

كان صوتها مضروباً لأول مرة، جريحاً ومكسوراً:

- أنا برضو فاجرة .. الحقّ عليّ .. أستاهل.

ثاني يوم، مبكراً، كانت الست هدير تطل من شرفة البيت الأرضية، محجّبة، تلف شعرها وتُغطّيه بالكامل، وفستانها مقفل الياقة طويل، تُصبّح على الجيران بصوت ناعم سلس ومستريح:

صباح الخير ياختّي يامّ اسماعين .. إن شاالله اسماعين يكون كويّس، والمعلّم أبو اسماعين؟ نحمدوه ونشكروا فضله.

القاهرة ٢٥ أغسطس ٢٠٠١

كوميونة في ملّوَي

لم يكونوا من المطاريد بالمعنى الدقيق.

كانوا عشرين شخصاً آثروا الحياة الحرة على الجبل في الصعيد.

عبد المولى كان قد سافر إلى أمريكا، اشتغل في بوكا راتان، فلوريدا، مرمطون، ثم جرسون في مطعم يملكه أرمنيّ مصريّ عجوز هاجر في الستينيات، ثم فتح الله على عبد المولى فعمل عربة يد يبيع فيها الفلافل والهوتْ دوج، ولكن ثم قلقاً كان يُمِضّ روحه، وهو القادم من ملوي. يؤرقه إحساس غامض أن هذا العالم ظالم، بشكل عام، وأن شُغلة الرأسمالي الصغير لا تريحه – مع أن مكسبها لا بأس به. باع "البزنيس" الصغير، غير آسف.

رحل إلى كوبا، اشتغل في مزارع القصب، سحرته أسطورة جيفارا، وافتتن بحكايات الكوميونات التي تنبثق من قلب مصاعب لا قبل لأحد بها، في مجاهل بوليفيا وكولمبيا، حيث يحارب الثوار منذ الستينيات يقاتلون عسكر الحكومة وعسف المؤامرات الأمريكية،

مطالبين بالإصلاح الزراعي، والعدالة للفقراء، والكرامة للمستضعفين في الأرض.

رجع عبد المولى الجعفري إلى ملّوَي، هاله ما عاينه من تغول "الجماعات" وعتوّ السلطات، الانفجارات والاغتيالات بالليل ضد النصارى والمسلمين سواءً، والدبابات والمصفحات تشق المدقات الضيقة والطرق بين الغيطان، وتخترق الزراعات وتدمّر أخصاص الفلاحين المشتبه في تواطؤهم أو الذين لا بهم ولا عليهم، سواءً. شتان بين القتال المعلن في باتشو، لا تكاد تبعد عن بوجوتا ثلاثين كيلو متراً، في سبيل الحرية والعدل وحق الناس في الحياة، وبين القتال غير المعلن في ملوي على المسافة نفسها تقريباً من المنيا، من أجل فرض سطوة النص السفليّ والسعي نحو الاستئثار بسلطة الحقيقة الظلامية.

على ظهْر صورة جميلة للأميرة فوزية (أو هي للملكة فريدة؟) نشر ما يلي في عدد قديم من مجلة "الاثنين والدنيا":

"أنه في يوم السبت ٢٩ يناير سنة ١٩٣٨ طول اليوم بناحية قلبا مركز ملوي ويوم الاثنين ٣١ يناير سنة ١٩٣٨ طول اليوم بسوق الأشمونين مركز ملوي سيباع علناً الغلال المبينة بمحضر الحجز مِلْك حميدة عبد الباقي إبراهيم بقلبا، تنفيذاً للحكم نمرة ١٨٢ سنة ١٩٣٧ وفاءً

لمبلغ ٨٣ قرشاً صاغً بما فيه النشر كطلب عبد الرحمن أفندي مصطفى المحامي بملوي فعلى راغب الشراء الحضور".

طول يومين وفي ناحيتين مختلفتين تباع بالمزاد، علناً، "غِلال"، وفاءً لمبلغ ٨٣ أيْ والله، ثلاثة وثمانين قرشاً صاغاً.

بينما كانت مصر الرسمية – وربما الشعبية أيضاً أو جانب منها – تحتفل بأفراح العائلة الملكية من سلالة الألباني أو (المقدوني؟) تاجر الدخان المغامر صانع مصر الحديثة وليّ نعمتها المعاصرة.

عندما سافر عبد المولى الجعفري إلى القاهرة وجد طريقه إلى جماعات متناثرة ضئيلة العدد وعديمة الأثر من بقايا اليساريين وفلول التروتسكيين وشُداة الفنانين والشباب الغض النازع نحو أشواق جياشة غير واضحة، صبياناً وبنات.

كانوا شرذمة من أولاد عائلات عريقة المحتد حطّت بها الأحوال من ناحية، أو من جذور الكادحين في دهاليز المصالح الحكومية ومحلات البقالة الصغيرة التي أصبح اسمها "سوبر ماركت" وعمال مصانع بيعت للقطاع الخاص برخص التراب فخرجوا على المعاش المبكر والمكافآت التي سرعان ما تبخرت في مرارة الغلاء وجنون الأسعار.

أما الأولاد فكانوا محترقي الأعين محترقي القلوب، في التيشرتات القديمة التي بهتت عليها شعارات مثل: I LOOK FOR LOVE أو حتى

الشعار القديم جداً: MAKE LOVE NOT WAR والجـــزم الضخمــة بالكعوب المطاط والوُشُوش القماش، أما البنات ففي البلوزات الكــاجوال نصف الكُمّ عليها الشعارات نفسها أو ما يشبهها والبنطلونـــات الجيــنز الضيقة والأحزمة العريضة، وشعرهن في العادة منكوش بقصد وتـــأنق أو عن إهمالٍ واقتناع "أيديولوجي".

ومنهم كوّن عبد المولى الجعفري كوميونــة ثوريــة فـــي الجبــل الشرقي عند مَلَّوَي.

بعد مقابر بني حسن إلى الجنوب، بين وعـــور الجبــل وشــعابه اكتشف عبد المولى ثغرة في وجه الصخر، مســـدودة بــالتراب القديــم وصغار الحجارة والحصى المتهاوي، رفعها بمعونة ولدين ثلاثـــة مــن جماعته الثورية اليسارية الصغيرة، لـــم تتـــوان بنسـت أو بنتـــان فـــي المشاركة، على سبيل المساواة.

كانوا في رحلة استكشافية و"ثقافية" لتقصي مقابر بني حسن ســـعياً إلى "الارتباط بالتراث وتمهيداً لصناعة المستقبل" كمـــا كـــانت تجــري أقوالهم.

انفتحت الثغرة عن قاعة فسيحة معتمة لولا أن نفذت إليها شـــمس الضحى العالي، وهبّت عليهم رائحة كثيفة مثقلة بغبار آلاف الســـنوات المغلق عليه في المقبرة الواسعة المنهوبة، تعثرت الأقدام في الحجـــارة المتناثرة على أرضية الجرانيت المكسوة الآن بطبقة من التراب والرمـل الدقيق.

عندما اشتعلت عيدان الكبريت لمحت الجماعة الناووس الجرانيتي الهائل، غطاؤه قد أزيح وانكسر، لم يجدوا فيه إلا بضع مِزَق من أربطة كتانية سرعان ما تحللت واستحالت هشيماً ورائحة النطرون والقطران الخافتة.

جدران المقبرة العالية وسقفها الذي لا يُرى لم يبق عليها إلا أثارات باهتة من ألوان لا تكاد تستبين، وخطوط سوداء من هباب حرائق قديمة تصعد مستدقة نحو السقف البعيد، على نقوش غائرة من رسوم وكتابات هيروغيليفية قد امّحت تقريباً، كأن المقبرة لم تستكمل، أو تعرضت للنهب والتشويه.

عادت الجماعة إلى المقبرة النائية، نظّفها الأولاد والبنات بالجواريف والمكانس المتخذه من خوص النخيل الجاف، وجاءوا بمراتب ومخدات وملاءات، وحملوا على أكتافهم مائدة خشبية وكراسي من غير ظَهْر صعدوا بها قمة الجبل وأوشكوا أن يتردوا في مهاويه.

في الكوميونة التي أطلق عليها الكوميونارْ أسم "ممفيس"، كانت عُدة الحياة موقد بوتاجاز منتفخ البطن وأوانٍ من الألمنيوم والبلاستيك وإبريق الشاي وكنكة قهوة كبيرة، والتموين الأسبوعي من الملح والبُنّ والشاي والزيت والخضار والفاكهة، يجلبونه من السفح تحت، وجراكن الماء المغلي سلفاً يستخدمونه بحساب دقيق، لا تعوزهم أكلة سمك بلطي

مقلي أو فراخ مشوية، وطبعاً علب التونة والسردين، وحتى علب الفول المدمس والبامية من قها وإدفينا.

لم تكن الكوميونة بحاجة إلى تقنية الصرخة البدائية primal scream التي لقِنها عبد المولى عن ثوار بوليفيا، لم تكن الكوميونة يوتوبيا، أو مدينة فاضلة، تماماً، مشاكلها ومصاعبها ومشاقها وتعثرها ونجاحاتها كلها واردة.

كانوا قد مهدوا نحو عشرين "قيراط" من الأرض في وادٍ عميق غائر قراح لا ماء به ولا نبْت برّي، يقع بين ضلعين من الجبل. كان الوادي تقريباً على مستوى أرض الوادي الخصيب، ينزلون إليه ويتوقلون منه بين شعاب الجبل ومضايقه وبطون فِجاجه وحنائه. كان أسامة وأوديت وجيهان مهندسين من خريجي هندسة القاهرة وعين شمس، واستطاعوا بشغل شحاته وشكري وفيليب أن يحفروا بئراً رويت بها الأرض وأينعت، زرعوا الطماطم والجرجير والملوخية، وعلى براح رمليّ فسيح طلعت حبّات البطيخ الكبيرة راقدة على أغصانها الممتدة المتفرعة. كان جميع أعضاء الكوميونة يشتغلون، كلاً حسب جهده، ويأخذون كلاً حسب حاجته.

الأكل والشغل يوزع بالتساوي الدقيق بين أعضاء الكوميونة، لا فضل لأحد فيها على أحد، من أول المؤسس والقائد عبد المولى الجعفري إلى أسامة وأوديت، علاء وشيماء، شريف ولنده، هشام

ونجوى، ميخائيل وليلى، شكري وكريمان، شـــحاته وجيـــهان، فيليـــب وسعاد، أيمن ومادلين، عصام وهُدَى.

أما الحب - وصنع الحب - فقد كان ثم كُودْ خلقيّ مضمَـــر (مـــن غير بلاغة ومن غير تنظير) يكفل نوعاً من التحقيق الجنسيّ وما أطلقوا عليه "طهارة التحرر الثوري".

الإشاعات، طبعاً، والأقاويل، تتناثر حول "المطـــاريد السياســـيين". ولم يكن أحد يعرف على وجه التحديد مَنْ هم ومـــاذا يفعلـــون وكيـــف يعيشون في أعلى الجبل الذي يستغرق الوصول إليه ساعات من المشـــي والهبوط والـ .عود والالتصاق بحيود الجبل وقُننه وأكتافه، كما يتطلـــب تطهير المدقات الضيقة والمخارق الوعـــرة مـــن الحجـــارة والحصـــى ودغلات النبْتات الوحشية الشائكة المنبثقة فجأة من أبعاض الجبل تكـــاد تسد المسالك الوعرة.

لكن "المطاريد" قد اشتد عودهم، واخشوشـــنت أيديـــهم، وبـــهتت الشعارات على قمصانهم، بعض الرجال آثـــروا الجلابيـــة الصعيـــدي، والفانلة واللباس، عوضاً عن القميص والبنطلون، كما اتخـــذت البنـــات الجلابية الصعيدي المرحرحة.

آثر المركز أن يغضّ الطرف عن هؤلاء "المجـــانين" مـــاداموا لا يشكلون خطراً على الأمن، لم يستطع المخبرون وأفـــراد المبـــاحث أن

يجدوا في سلوكهم ما يثير الريبة أو الخشية على الاستقرار، بل ظهرت نظرية "أمْنيّة": أنه يمكن إذا اقتضت الحال أن نستفيد منهم ضد "الجماعات" وأن نتركهم يضربون بعضهم بعضاً.

كان فيليب صعيديّ الأصل، خشن الملامح، صلباً وعنيداً، عضمة زرقا، كما يقال، نزل يشتري الزوّادة الأسبوعية ع المغارب من سوق الثلاثاء في ملوي.

طَخّوه.

جاءت زخّة نار من بندقية مكشوطة الفوهة، انبثقت مسددة إليه بالضبط من كوّة ضيقة في خُص قديم من الطوب اللبن على جانب السوق، جندلته الطلقات. سقط على الفور مضرجاً بالدّم المتدفق، تطايرت عظام الجمجمة وفتات المخ واحترق جلد الوجه من وقع الرصاص المنطلق قريباً جداً منه، وعندما وصل البوليس والنيابة كانت الجثة قد غطيت بورق الجرائد الذي بللته بقع واسعة من الدم، وكان الخص مهجوراً وخاوياً.

قيل إن وراء القتل ثأراً قديماً منسيّاً.

قيل إن الجماعات قررت أن تلقن "النصارى الكفار" درساً وأن تعطيهم إنذاراً.

قيل إن من أعضاء الكوميونة بنت مسلمة لم يطق أهلها صبراً على فضيحتهم فانتقموا منه وطهّروا عرضهم.

تفككت بعض عُري الكوميونة بين من غادرها ونزل إلى مصـــــر ومن بقي. أصر اثنى عشر منهم بالضبط على مواصلـــــة "الحيـــاة فـــي الحرية" ولملمة حطام "ممفيس".

هل كان من بينهم يهوذا؟

الأمور لم تعد واضحة وقاطعة ويقينيّة.

هل تستمر الحياة في الحرية بسلام، من غير عنف، أم سيصبح الردّ بالعنف حتمياً وإن كان غير مرغوب؟

الآن هل تتركهم السلطات في حالهم بعد أن انكسرت شوكة "الجماعــات" (ربما إلى حين ،ربما لا) ولم تعد السلطات بحاجة إلى رديف احتيــاطي لمواجهة عنف "الجماعات"؟

قيل إن الإعدادات تجري لشــــنّ تجريــدة تطلــع الجبــل وتُنـــهي الأسطورة.

القاهرة ٢٥ أغسطس ٢٠٠١

وسط البَلَد

ليس من المجهول تماماً – فيما أتصور – أنني اسكندراني المولــد والنشأة والهوى، صعيديّ الأصل والأرومة، ولكنني اليوم سأحكي قليـــلاً عن وسط البلد في القاهرة، وسط القرن، في الخمسينيات أو قبلها.

لعل أول مرة أذكر أنني نزلت القـــاهرة فيـــها كـــانت ١٩٣٢ أو (١٩٣٦) جئت مع أمي، كنت في السادسة (أو في العاشرة) الأرجح أنها كانت السادسة .. ونزلنا في بيت عمتي في شبرا، هل تسلمون معي بأن شبرا، عندئذ كانت في وسط البلد؟

لن أنسى أبداً ما حييت – وربما بعد ذلك – يقظتي فـــــي الفجـــر، يومها، وأذان الفجر تتردد أصداؤه في سكون الشارع الذي تظلله أشجار وارفة، والصوت الرخيم العذب يملأ ســـماء اليقظـــة وســـماء الـــروح بترجيعات هادئة ورفيقة كأنما فيها شجن عميق مع النداء الذي يصّـــاعد إلى آفاق لا حدود لها. أين هذا الجمال الروحي الرائق مـــن الخشـــونة والجفاوة وما يشبه العنف والضغط والاقتحام الـــذي قـــد نســـمعه الآن أحياناً؟

هل كانت هذه الزيارة لوسط البلد هي التي أدّت بنا إلى بيت قريبنا "سي نصيف" الذي كان يشتغل في السكة الحديد. البيـــت فـــي إحـــدى حواري شبرا القريبة من محطة باب الحديد، وقد أمطرت الدنيا يومـــها واستحالت شبرا إلى ردْغة من الأوحال الطرية والمياه الراكدة، خضنـــا فيها كيفما استطعنا على أحجار وأخشاب ممدودة بين الأرصفة وفـــوق الطين، وكانت رائحة الماء والبلل - مع ذلك - نظيفة ومنعشة بشكلٍ ما، ومازال حضور "سي نصيف" في روحي قوياً. كان صلب الوجه، خشناً، ولكن فيه طيبة ودماثة وقد رحّب بقدومنا إلى بيتـــه الضيّـــق الصغـــير ترحيباً فيه حرارة القربى ونوع من كرم النفس - فضلاً عن كرم اليد - المقدرة على هذا الكرم الروحيّ إذ أستعيدها الآن بحنين ممـــضّ، هـــي التي بهرت ذلك الطفل في وسط البلد، ولعلها هي التي مازالت تضـــيء روحه حتى الآن.

كانت تلك الزيارة لقاهرة الثلاثينيات لأن أمـــي - رحمـــها الله - أرادت أن تلمّ بالمعرض الزراعي الصناعي، هل كان يعقد فـــي تلـــك السنة للمرة الأولى؟ وكان أبي عندئذ يستعصي عليه أن يترك عمله فـــي الإسكندرية، ولكن عمتي بكل وداعتها وصلابتها الصعيديـــة الحقيقيـــة كانت صورة طبق الأصل من الأب الغائب، قليلة القـــد ولكنـــها قويـــة الأسْر، وجهها الداكن المغضن دقيق الملامح تحيط به الطرحة الســـوداء وفوقها الشال الأزرق قلاّب اللون إلى البنفسجي الضارب إلـــى حمـــرة

خفية، وكان للبيت الذي نزلنا به حديقة صغيرة هي أقرب إلى ممر مخضوضر ترتفع فيه نخلتان باسقتان سامقتان كأنني أسمع حفيف السعف فيهما على خلفية أذان الفجر الرخيم.

من هذا المعرض عُدت إلى الإسكندرية ومعي طقم من النحاس الأحمر لأوان ومواعين مصغّرة جداً كنت أفيد منها عندما نقيم أنا وأخواتي البنات "ولائم" لضيوفنا المتخيَّلين، ألعب في هذه اللعبة دور صاحب البيت، وأسيّر الأمور فنملأ هذه الأواني – مع أطباق فناجين القهوة الصغيرة، وأغطية علب وبرطمانات المربىّ والحلوى – بأطايب نختلسها من مطبخ البيت: الجبنة البيضاء عليها زبدة، الحلاوة الطحينية، وحبات الترمس الصفراء والزيتون الأسود والسكر السنترفيش وحبوب من العدس الأسود والقمح والذرة نتخيلها طرية ناضجة تطلب الأكالة.

ذلك كان وسط البلد قبل وسط القرن.

جرت السنوات – كعادتها سراعاً – وفي أواخر الأربعينيات كنت آتي القاهرة لأرى رموز الحركة السريالية والتروتسكية، رمسيس يونان، لطف الله سليمان، إبراهيم عامر وأنور كامل .. أليس مفزعاً حقاً أنهم جميعاً الآن قد رحلوا؟ من يذكر إبراهيم عامر؟ مَنْ يذكرهم حقاً ومن يُنكرهم؟

وهل أنسى – مرة أخرى – شارع فؤاد وشارع قصر النيل وشارع سليمان في أواخر الأربعينيات؟ كنت أنزل عادة في أحد فنادق

وسط البلد، في شارع فؤاد، هل هو اكستادي أو الجراند أوتيل؟ وكانت الليلة بأقل قليلاً من جنيه واحد، بغرفة نظيفة و"راقية" وهادئة. نعم. هادئة. لا يكاد يصعد إليها صوت الترام الذي يخشخش ويصلصل. تحت، بعيداً عن الأدوار العالية، وأصداء السيارات القليلة خافتة، أهذا مما تلعب به الذكرى عليّ؟ بالمقارنة بالصخب والهوس الصوتيّ الذي كدنا الآن نراه المعيار والعادي والماشي؟

عندما كنت أنزل لآخذ القهوة في الاكسيلسيور أو الثِري بيلْزْ (الأجراس الثلاثة) إن لم أكن أخلط الواقع بالأوهام، كان شارع سليمان عندئذ، في بكرة صبح يوم الجمعة خاويا، أنيقاً، لامع الإسفلت، يتضوع فيه عبق أرستقراطيةٍ رفيعة الذوق، يتوسطه تمثال سليمان باشا، بسرواله التركي المصري وسيفه وعمامته، ونحن الذين كنا على استعداد لبذل حريتنا ومصيرنا في سبيل أن يستعيد شعبنا كرامته وحريته، ما كنا نرى في ذلك التحضر ما يضير أو يشين أو يدان، بل كنا نحلم أن يكون هذا التحضر ملكاً لشعبنا لا للواغلين المستغلين. إلام آلت الأحلام الآن؟ وها نحن نرى شعبنا نهباً مستباحاً للفظاظة والقبح والخصخصة وانفتاح السداح مداح، وفريسة للتلوث والضوضاء والتخليط والفساد والنفاق.

كنا نحلم بأن يكون وسط البلد، تلك الشوارع والبنايات الجميلة التي لعلها كانت تفوق شوارع باريس وروما أناقة هي شوارع شعبنا لا

شوارع الغرباء. وها هي بداوة الغرباء وغلظتهم قد رانت على كل شوارعنا، بل كادت تزحم كل سكك أرواحنا، وها هي رطانة الغرباء قد غلبت علينا، أو أوشكت. فما زلت أحلم، وما زلت أرى قاهرة وسط القرن تخايلني بسراب عودة تبدو مستحيلة، ولا أسقِط الحلم فلعل في الحلم جنين الواقع القادم.

أما وسط البلد القديم العريق، من الجمالية وحتى القلعة، فما زال حياً ونابضاً بالحيوية. هذه هي – وحدها – القاهرة التي أعرفها معرفة الحب وهي وحدها التي فيها نجدة وعزاء وشموخ لا ينحني، مهما شابها من عَوار، مهما تحيّقها من تدهور بادٍ وإهمال يشارف أو يقارف الجريمة. ومرة ثالثة هل أنسى أبداً زيارتي لدرب اللبانة، وبيته الشهير الذي عاش فيه، ومر على عتبته بيب مارتان ومحمد ناجي، راغب عياد وكامل التلمساني، وجورج حنين، ورمسيس يونان، موسكاتيللي وسند بسطا، كاترين سرسق وبولا العلايلي، وغيرهم ممن لا اسم لهم، هؤلاء الذين عذبتهم أرواحهم، وطوحت بجسومهم النزوات والمعاشق، وألغاز مجرد الوجود، وأنه هنا حسمت مصائر أو علقت إلى الأبد دون قرار، رسمت أقدار هذا البلد – إلى حد ما – وتجسدت أشعاره.

عندما صعدت إلى الدور الثاني – أو الثالث – في القاعة الفسيحة التي تطل على القلعة، وجلست إلى رمسيس يونان، وهو يتكلم بصوت عميق وجوّاني عن ضرورة النظر في الماركسية كلها بروح الحرية لا

بروح العقيدة، كان هو على وشك الرحيل إلى المحطة الفرنسية الباريسية في حياته، لكي يعود منها في ١٩٥٦، وقد رفض الانصياع لإملاء الحكومة الفرنسية، وضحى بعمله وبيته ومعاشه وغامر بمصيره لكي يدفع عن البلد غائلة العدوان، بقدر ما في وسعه ذلك، في تلك السنة نفسها كنت قد تركت الإسكندرية، قلبي ما زال هناك حتى الآن، بطبيعة الحال وسكنت مع ألفريد فرج في شارع المبتديان، في العمارة نفسها التي كان يسكنها يوسف إدريس.

وفي ظلام القاهرة عند الغارات الجوية، كنت أشق طريقي من ميدان الإسماعيلية الذي أصبح ميدان التحرير، أنا الاسكندراني الطارئ على وسط البلد لا أعرف طرقه وحواريه، بخطوات واثقة، أعبر الميدان المضطرب بالمرور من كل الأنواع، إلى شارع سليمان هذا الذي كنت قد عرفت صورته الرائعة في الأربعينيات، ومنه إلى شارع فؤاد ثم إلى شارع جلال، وإلى مقر "الجمهورية" و "المساء" لكي أعرف آخر الأخبار، وكانت ساقاي تسلكان السكك التي هي لي، ولنا، وليس لغريب معتدٍ، أما الآن بعد خمسين سنة تقريباً، فكأنني أبحث عن طريق، وكأنني لا أجد الطريق.

وفي وهمي وفي يقيني معاً مازالت سكك وسط البلد، سكك وسط الروح، مفتوحة تفضي إلى آفاق قد تكون مجهولة وغامضة المعالم لكنها فسيحة ومضيئة مهما كانت موضع سؤال.

تراكيب عَ الْهامش

الأعمدة القائمة على صخور صبوات غير واضحة يمصّ منها القمر سلافة تعاقبت عليها الصلال الملكية من غير أن تستنفد منها عصارتها والصقور الصغيرة تنفض أجنحتها وتثب فوق فرائسها على أرضية الجرانيت تقضم أعناقاً هشة ثم تحلق في سماء الليل التي تخترقها ثقوب فسيحة تستقطب إلى أحضانها صغار النجوم الوامضة سراعاً إلى اختفاء.

ثعابين متموجة تلتف حول خصور نحيلة مكشوفة على أنغام هارْب غير مرئيّ وخطوط الماء تتراقص غائرة في صلب الصوان العصيّ تخترقها مناقير إيبيس المستدقة إذ تتلوى الرقاب الرفيعة منجردة عن ريشها تأوي إلى الأجنحة أجسادٌ أنثوية عضلة وملساء تتلمس دفئاً حيوانياً نزر العطاء من دماء غير مشبعة بشبق شاحب.

تنفتح الأرصاد العضوية عن قرابين مشويّة حيّة ترفضها الآلهة المرفوضة هي نفسها وتصأى القردة البابون منفلتة عن أغصان اللوتس وسعف النخيل صارخة من لسعة شوك الدوم الصلب.

عقود الفيروز اللازوردية حول الجيد الناصع كل ما ترتديه راقصة أملود يتضوع من الحجَر عبق جسدها الذي لم يذو بعـــد أربعـــة آلاف وخمسة وأربعين سنة مما يعدَون إذ تنحني وتعتدل تميد وتـــهبّ علـــى عواصف الموسيقى المحكومة بأوتار هندسية وجموح مكتوم.

تضرعات مرفوعة الأذرع تستصرخ رحمةً قد اندثرت ولم تبـــق منها إلا أنقاض مرمية مُكسّرة انحسرت عنـــها أشـــعة "رعٌ" وتقبضـــت أصابعها.

الأسماك الهندسية دقيقة الزعانف تسبح في مياه نقية غير مرئيـــة أماكنها على الحجر فجوات جافية تنتظر عودتها من سباتها في أحضـــان "حابي" المحيق.

خطم أنوبيس ابن آوي منصوب الأذنين منصوب القامة تنبعث عنه أنفاس زهمة ساخنة إذ يجوس في حنايا قدس أقداسٍ منتـــهك ومنـــهوك ينبض من غير يأس تقدمةً تسترضي غضب إلهٍ لم يعد أحد يهتم به.

عربدة رقص ملهوف تحت القمر الساقط علـــى جنـــادل تحـــاتّتْ حوافها ونَعُمتْ من طول تقلّب الأهواء عليها وانصباب قطْر الشـــهوات الألفية بينما عجيج الكباش كأنه خوار ينشُد صبابةً من ريٍّ ضربه زمان الجفاف من زمان.

غدائر صخور تنزل على صدرها وتلتوي قوسيْن خَضِلِيـن علـى نهدين مكوّرين نصلت عنهما الألوان الخضراء والطوبية اليانعة وآبـت إلى كُهْبَة رمداء.

وعلى حيطان نصف مهدومة ما زالت آثـار الحرائـق العقائديـة العتيقة في ألسنة سوداء من الهباب وشعث دخان متجمـد يريـن علـى القلوب.

كانوا في الهزيع الأخير يحفرون الأرض تحت سفح العمود السامق يغوصون بحثاً عن معنىً ذهبيً باد وبادت معه أيامٌ يانعة لـن تعـود، الحفر في الأحشاء الحارّة لا يُفضي أبداً إلى الحِرْز الحريـز الملفـوف بأقمطة الكِتّان والنطرون والمرصود إلى مجهولٍ يظل مجهولاً إلى آخـر الدهور.

سهام مرشوقة إلى الأبد مصوّبة إلى النهود العاريـة معلّقـة فـي اندفاعةِ انطلاقها بلا وصول.

أزهار البردي من الجرانيت الأسود تهدلّت.

غرقت قوارب الجعارين وانكتم صراخ الغرقى.

العقارب الضخام شاهرة الحُمَة تسبح ببطء في مستنقعات الدلتـا، ترمي عليها إيزيس محترقة القلب طلاسمها فتقف مرة واحدة وتغـوص برؤوسها مختنقة في طين.

البنات القادمات من سهوب الشمال الباردة قـــد لوّحــت الشــمس المحرقة بشرتهن البيضاء وصهرت شعرهن إلى شقرة شـــاهقة تمـــددن على الحصى وكِسارة الحِقب والقرون تحت الدوران الشاســـع لقــاعدةٍ منحوتة شعثاء الحواشي يشبّ منها رأس ســـوميك، مــازالت زعانفــه مغمورة في البركة المقدسة راكدة المياه عطِنة العبير تتشـــممه البنــات بشفاهٍ مشبوحة مشققة يستطعمن نكهة حسكٍ خشن مرغوب ومرهـــوب ومضروبٍ معاً.

نباتات كثة غضيرة وخشنة الخُضرة تطلع برؤوسها المشعثة مـــن مياه الشط الزلق.

المراكب بسطت أشرعتها تحت جـدار "ســميراميس" كولونيــاليّ المعمار أبحرت إلى بلاد بونت لم ترجع بالبخور والصندل والطيوب بل عادت بالجماجم هشمتها صواريخ أرض - أرض وطلقات الكلاشينكوف وطعنات رماح أمريكية مسمومة ترفرف فوقها طيـــور أبــو فصــادة الرمادي، والصقر أسود الكتف، أما البجع طويل العنـــق فيقــف علـــى صاري المركب الرفيع الصاعد إلى زرقة السماء الصافية.

صخور الأهرام استعادت كل مجدها القديـــم، مشـــرقة بـــالضوء الضارب منعكساً عن بياض السطوح الناعمة الساطعة تتوجها قمة ذهبية تخترق جلد السماء الصافية المشدودة على عضلات الأشـــواق للأبديـــة

وللخلود المراوغ الذي لا ينى يخايل بأنه على مرمى ذراعيْ المضض الإنساني لا يستكين إلى استنامة. ابن آوي باعث الملذات وناهش الأجداث جوّاس بين ساحات الروح الصحراوية. هل درجات الأهرام تصعد إلى التحقق أم إلى الفناء؟

تتدحرج الأجسام المتعانقة المتشابكة على درجات سلّم متعاقبة من غير سياج صاعدة إلى ربوة مكسوة بالعشب الأخضر والحلفا وأعواد الهيش الغضة أو المتيبسة، من بقايا أهواءٍ قديمة محطمة. أنين ضربات المتعة يغلف أوراق اللوتس الطافية على لحم العواميد المكشوف أمام مقبرة هيكا - إيب. قرص القمر المجنح يخفق ريشه الحريري العظيم بالبَركة أو اللعنة سواء.

يذرعون الممر الطويل الضيق بين الجدران الصماء. العتمة تظلل أكاليل النخل واللوتس الحجرية. لا ينتهي النفق المقدس حتى يصل فجأة إلى فتحة النور الباهر تمتد وراءها سشاعة مجد صحراء طاهرة النوايا بللّورية الأحناء.

عنخ تقوم وحدها على رمال صحراء قاحلة الجدب تنبعج فجأة بحملٍ من إخصاب "مين" هل يجهض الجنين النحاسيّ أم ينبثق في شعاليل من نار جميلة هي برد وسلام؟

مانشيتات "الأهرام" تقارع متون الأهرام أيها تتساقط كأوراق تهزها الخماسين المثقلة بغبار إحباطات دهرية؟ من أيها تتدلع هبّات وثورات التمرد على الإذلال والقهر وعُهْر النهب السافر استنزافاً لخيرات الأثداء المدرار وأموال الخزائن السرية؟

"كشفت البعثة الرومانية للتنقيب عن الآثار، بمنطقة إسنا، عن مقبرة فيها تماثيل ضخمة منحوتة من الديوريت الأخضر الداكن من عصر الدولة القديمة، تتراوح ارتفاعات التماثيل بين ٧ و ١١ قدماً قائمة بين أعمدة من الجرانيت الأسود المجزّع بشرايين صهباء عليها كتابات بالهيروغليفية بأسلوب الحفر الغائر ملونة بالأخضر على أرضية باللون الأحمر، وهي تمثل الملك بيبي الأول من الأسرة السادسة وإحدى سراريه (٢٣٤٥ - ٢١٨١ ق. م)".

(عن "الأهرام" في ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٠ بتصرفٍ كبير)

في جوف صخور منقورة محبّبة بثغرات دقيقة تصحو المومياء تفتح عينيها اللتين سدّتهما أحجار الفيروز وتنبض شفتاها المطبقتان على عطور لانفاد لتضوُّعها، أقمطتها الكتّانية الملفوفة حول ذراعيها بإحكام تهتز ثم تتهاوى مزقاً نظيفة حادة القطْوع، وساقاها الملتصقتان إحداهما بالأخرى تنفرجان، تسري فيهما دماء القيامة وتسقط عنهما أوشحة

النطرون ولفائف القطران، هيَ ذي المومياء وسيمة المُحيّا تنهض من قبرها المفتوح، نداؤها الخفيض يعلو قليلاً قليلاً ثم يدوّي في الآفاق تتردد أصداؤه عائدة من اصطدامها بجدار الأفق السحيق متقلة بوجد صبوات لا نهاية لتوقُدها في الصدر الناهد والرحم المخبوء.

أكاليل الزهور البرتقالية والبنفسجية والحمراء القانية قد دبت فيها الحياة، اللوتس والأقحوان والزهور البرية من مروج الأجساد المنبسطة تحت قرص "رع" الحاني المحرق معاً وردة الفرج الوحشية خبيئة تحت ستر الكتان الشفافّ الذي يستدير بحنْيات الجسم الأنثوي بينما تونع أزهار القلب الفيزيقية أما الُحمرة في العقود التي تجلل الرأس المرفوع بكبرياء فهي الطاقة المتفجرة والنزوع نحو الألوهية المستسرّة في طوايا الجسدانية أما الإزار الأصفر الملتفّ بالفخدين المدورتين فهو البساطة والبهجة العقلية في الجذع المكين ورسوخ السلام أما الطوق الوردي فهو توازن الألوان والأهواء وكرم الطواعية وتفتح الروح الأمين يغلله النور الأزرق الذي لم تنلْ منه صُروف الأزمان.

أما النهدان المدوّران المتباعدان ففيهما موسيقية مونقة.

الخدوش على الديوريت لا تنال من نضارة عريقة تبقَى على الزمن مهما مرت السنوات والدهور كما تبقى دائماً دماء الثائرين على القهر وكلمات الفلاح الفصيح ونداءات المتمردين أمام البيت الكبير في

مدينة الشتاء، أمام سراي العدالة معصوبة العينين مغروسة القدمين في طين الظلْم في ردغة الأكاذيب وأمام تكنات الجنود شاهري الرماح أو الصواريخ في ميادين الإسماعيلية أو السوربون أو في حواري مدينة المخلّص وتحت صرح الأقصى، كلها باقية لا تزول، ويبقى دائماً انهمار قطْر الماء المخصب المحيي في ذروة لحظات الحب. لا يمكن أن تذهب هدراً.

لُبّ إيمانٍ قد يكون غير عقلانيّ ولكنه صحيح صحيح صحيح ..

ظل الشمس المستحيل عقيدة لا كفران بها. يد الصدق المتقد بالنار رميٌ بالنفس من على قُنن جبال الرِيَب.

القاهرة ١ سبتمبر ٢٠٠١

للمؤلف

قصص وروايات

١ - حيطان عالية: مجموعة قصص — القاهرة: الخراط، ١٩٥٩ ط٢ (كاملة) - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠ ط٣ (كاملة مع مقدمة ودراسات) الإسكندرية: دار المستقبل ١٩٩٥.

٢ - ساعات الكبرياء: مجموعة قصص — بيروت: دار الآداب، ١٩٧٢. ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠ ط٣ - القاهرة: مختارات فصول، ١٩٩٤

٣ - رامة والتنين: رواية — القاهرة: الخراط، ١٩٧٩. (طبعة محدودة) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠ (ترجمت للإنجليزية) ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢. ط٣ - الإسكندرية: دار المستقبل، ١٩٩٣.

٤ - اختناقات العشق والصباح: قصص — القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٣ ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

٥ - الزمن الآخر: رواية — القاهرة: دار شهدي، ١٩٨٥. ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.

٦ - محطة السكة الحديد: رواية — القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، (مختارات فصول)، ١٩٨٥. ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠.

٧ - ترابها زعفران: نصوص اسكندرانية — القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٦. ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩١. (ترجمت للإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والأسبانية - القشطالية والسويدية واليونانية)

٨ - أضلاع الصحراء: رواية — القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧.

٩ - يا بنات إسكندرية: رواية — بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠ط٢ - القاهرة: دار إلياس العصرية، ١٩٩١.(ترجمت للإنجليزية والفرنسية والإيطالية)

١٠ - مخلوقات الأشواق الطائرة: رواية	بيروت: دار الآداب، ١٩٩٠. ط٢ - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢. ط٣ - القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٩٩٥.
١١ - أمواج الليالي: متتالية قصصية	القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩١. ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٢.
١٢ - حجارة بوبيللو: رواية	القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٣. ط٢ - بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣. (ترجمت للإنجليزية والفرنسية والإيطالية والبولندية والأسبانية - القطالونية والألمانية)
١٣ - اختراقات الهوى والتهلكة: نزوات روائية	بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣.
١٤ - رقرقة الأحلام الملحية: رواية	بيروت: دار الآداب، ١٩٩٤.
١٥ - أبنية متطايرة: رواية	بيروت: دار الآداب، ١٩٩٧.
١٦ - حريق الأخيلة: رواية	الإسكندرية: دار المستقبل، ١٩٩٤.
١٧ - اسكندريتي: كولاج قصصي	الإسكندرية: دار المستقبل، ١٩٩٤.
١٨ - يقين العطش: رواية	القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٧.
١٩ - تباريح الوقائع والجنون	القاهرة: مركز الحضارة العربية، ١٩٩٨.
٢٠ - عمل نبيل (مختارات)	القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٩.
٢١ - رقصة الأشواق (مختارات)	وكالة الصحافة العربية ٢٠٠١
٢٢ - صخور السماء: رواية	القاهرة، مركز الحضارة العربية ٢٠٠١
٢٣ - طريق النسر: رواية	القاهرة، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢
٢٤ - مضارب الأهواء: قصص قصيرة	القاهرة : دار البستاني للنشر والتوزيع ٢٠٠٣
٢٥- الغجرية والمخزنجى: رواية	تحت الطبع

شعر

٢٦ – تأويلات: سبع قصائد (إلى عدلي رزق الله) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦.

٢٧ – لماذا؟: مقاطع من قصيدة حب (١٩٥٥ – ١٩٩٥) القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٦.

٢٨ – ضربتني أجنحة طائرك (قصائد إلى أحمد مرسي) القاهرة: دار حور، ١٩٩٦.

٢٩ – طغيان سطوة الطوايا الهيئة العامة لقصور الثقافة (أصوات أدبية) ١٩٩٦.

٣٠ – صيحة وحيد القرن (قصائد إلى سامي علي) القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٨.

٣١ – سبع سحابات – دانتيللا السماء القاهرة، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٠

دراسات

٣٢ – مختارات من القصة القصيرة في السبعينات: مع دراسة القاهرة: مطبوعات القاهرة، ١٩٨٢. (نفد)

٣٣ – عدلي رزق الله: مائيات ٨٦: دراسة القاهرة: ١٩٨٦.

٣٤ – مائيات صغيرة: دراسة القاهرة: ١٩٨٩.

٣٥ – أحمد مرسي: دراسة ومختارات شعرية القاهرة: ١٩٩٠.

٣٦ – الحساسية الجديدة: مقالات في الظاهرة القصصية بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣.

٣٧ – من الصمت إلى التمرد: دراسات في الأدب العالمي القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتابات نقدية) ١٩٩٤.

٣٨ – الكتابة عبر النوعية: دراسة القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٤.

٣٩ – عصيان الحلم: مختارات ودراسات في الشعر. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٥.
٤٠ – أنشودة للكثافة: في الفن والثقافة القاهرة: المستقبل العربي، ١٩٩٥.
٤١ – مهاجمة المستحيل: سيرة ذاتية للكتابة دمشق: دار المدى، ١٩٩٦.
٤٢ – مراودة المستحيل: حوار مع الذات والآخرين عمان: دار أزمنة، ١٩٩٧.
٤٣ – أحمد مرسي شاعر تشكيلي القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٧.
٤٤ – ما وراء الواقع: في الظاهرة اللاواقعية القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٨.
٤٥ – أصوات الحداثة: اتجاهات حداثية في القص العربي بيروت: دار الآداب، ١٩٩٨.
٤٦ – شعر الحداثة في مصر القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠
٤٧ – المشهد القصصي في مصر القاهرة، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٣
٤٨ – القصة والحداثة القاهرة، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٣
٤٩ – فجر المسرح: دراسات في نشأة المسرح دار البستاني للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣
٥٠ في نور آخر: عن الفن التشكيلي القاهرة، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٣
٥١ – المسرح والأسطورة، أساطير مسرحية تحت الطبع

كتب مترجمة

٥٢ – الخطاب المفقود: مسرحية ا.ل.كارجيالي. الدار المصرية للكتاب، ١٩٥٨.
٥٣ – الحرب والسلام: ليو تولستوي القاهرة: الدار المصرية للكتاب، ١٩٥٨
٥٤ – الغجرية والفارس: قصص رومانية القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨ (نفد)
٥٥ – شهر العسل المر: قصص إيطالية القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، (كتب ثقافية) ١٩٥٩، (نفد) ط٢، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة (آفاق الترجمة) ١٩٩٩.

٥٦ – فارالاكو: رواية غينية، إميل سيسيه القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، (الألف كتاب) ١٩٦٢.

٥٧ – انتيجون: مسرحية جان آنوي، بالاشتراك مع الفريد فرج. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، (الألف كتاب) ١٩٦٣. (نفد)

٥٨ – مشروع الحياة: دراسة فرانسيس جانسون بيروت: دار الآداب، ١٩٦٧.

٥٩ – ميديا: مسرحية جان آنوي القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، (مجلة المسرح)، ١٩٦٨.(نفد) ومجلة الألسن للترجمة، العدد الأول، يونيو ٢٠٠٠

٦٠ – الوجه الآخر لأمريكا: دراسة ميكائيل هارنجتون بيروت: دار الآداب، ١٩٦٨. (نفد)

٦١ – تشريح جثة الاستعمار: دراسة جي دي بوشير. بيروت: دار الآداب، ١٩٦٨. (نفد)

٦٢ – الشوارع العارية: رواية فاسكو براتوليني بيروت: دار الآداب، ١٩٦٩.
ط٢ – القاهرة: دار إلياس العصرية، ١٩٩١.

٦٣ – نحو التحرر: دراسة هربرت ماركوز بيروت: دار الآداب، ١٩٧٢. (نفد)

٦٤ – حوريات البحر: قصص أمريكية القاهرة: دار الهلال، ١٩٧٩. (نفد) ط٢ – القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٥.

٦٥ – الإسلام والاستعمار: دراسة القاهرة: دار شهدي، ١٩٨٥.

٦٦ – الرؤى والأقنعة: قصص مترجمة أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٥.

٦٧ – السرير المائدة: شعر بول إيلوار القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة (آفاق الترجمة) ١٩٩٧.

٦٨ – ثلاث زنبقات ووردة: قصص مترجمة القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨

٦٩ – الغضب وأحلام السنين: مسرحيات قصيرة. القاهرة:المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣.

كتب عن المؤلف

١ – يقين الكتابة (حسني حسن)، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦

٢ – جماليات التشظي (السيد فاروق)، القاهرة، دار شرقيات ١٩٩٦

٣ – ثنائيات إدوار الخراط النصية (أحمد خريس)، عمان، دار أزمنة ١٩٩٨

٤ – صوت صارخ في الشوارع (عدة مؤلفين)، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨

٥ – مغامر حتى النهاية (عدة مؤلفين)، القاهرة، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٠

٦ – شعرية المكان في الرواية الجديدة: الخطاب الروائي لادوار الخراط نموذجاً، (خالد حسين) كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، ٢٠٠١

٧ – الإغارة على الحدود (د. ماهر شفيق فريد) القاهرة، مركز الحضارة العربية ٢٠٠٣

قصص المجموعة

دار البستانى للنشر والتوزيع

تاسست عام ١٩٠٠



قصص يقف فيها الراوي أمام
جمال الوجود وأهواله، وأقدار
الناس، فى شوارع الإسكندرية أو
قرى الصعيد، فى القاهرة أو فى
صحراء وادى النطرون، أمام الألم،
والرعب، والمتعة بالحياة.

لكل قصة منها عالمها المتفرّد لكنها
تندرج فى كيانٍ فنيّ متسق مع
تنوعه، تلهمه رؤية جمالية
وفكرية خاصة .

2288754

دار البستانى للنشر والتوزيع
تأسست عام ١٩٠٠